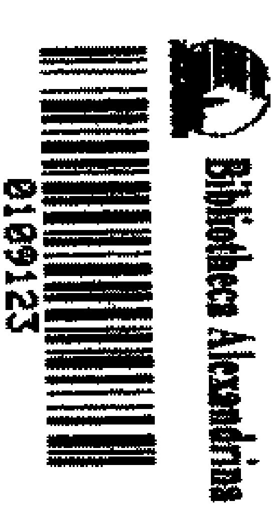
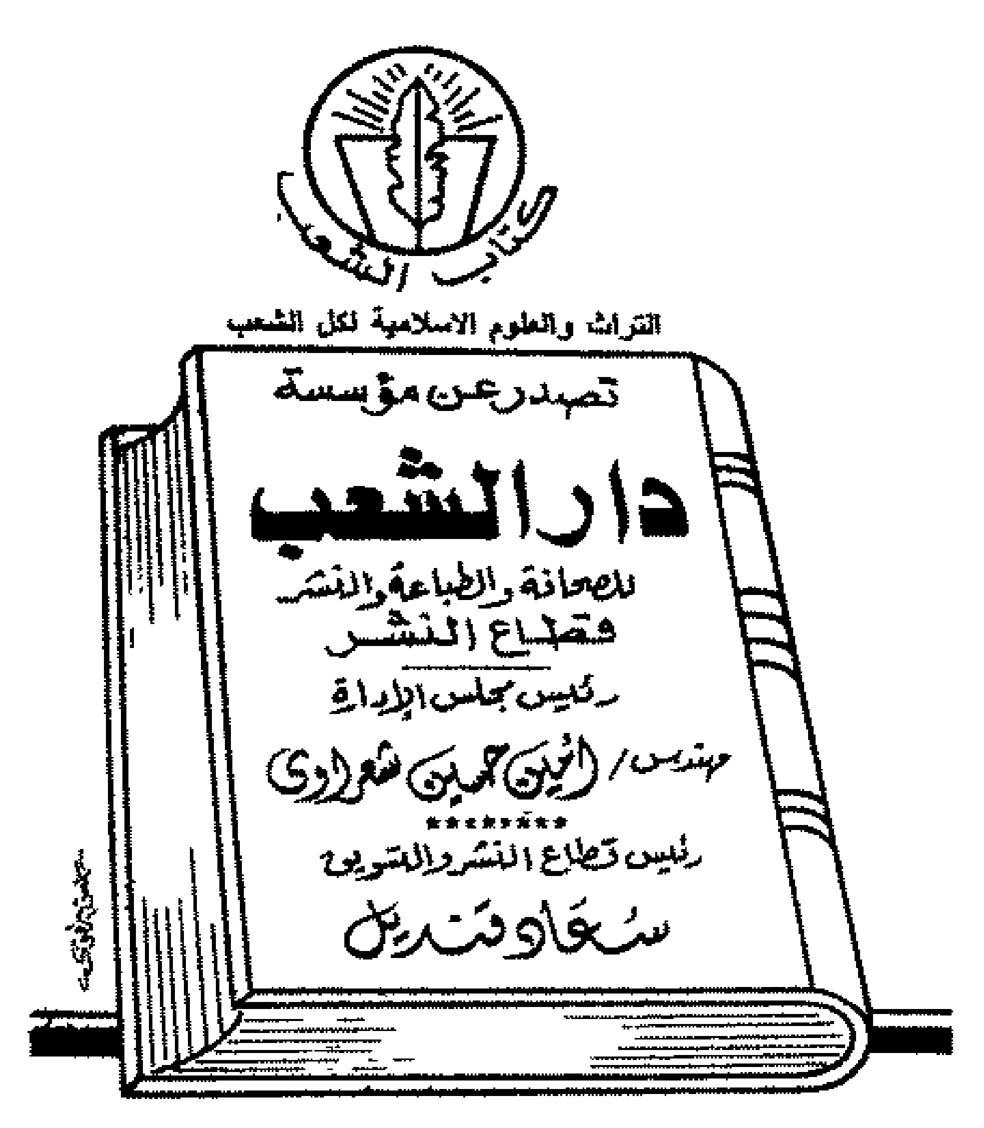
الديوان

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد
ابراهيم عبد القادر المازنى

الطبعة الرابعة





المقر : ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة .

: ت ٠ ٣٥٥١٥٩٩

. ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨٠٠

فاكس : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدى ١١٥١٦

الدّيوان

(في الأدبْ والنقـد)

لمؤلفيـه

عباس محمود العقاد
ابراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض فى احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة فى أصوله وفنونه ، اخصها الأمل فى تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الامل وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (1) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب فى بضع السنوات الأخيرة وراوا بعض آثاره وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو انكون فيه موفقين الى الافادة

(1) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزءان طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة 1921 واعيد طبعهما بعد شهرين

مسددين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا ـ ان افلحنا فيه ـ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انسانى مصرى عربى : انسانى لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث فى اعم مظاهره الا عربيا بحتا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة اصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا ان نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة في ادبه عن النقد ، فان ادب شوقي ورصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا اهون الهينات . ولكن تعففا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن اسرارها ودسائسها طى الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا ان يطبق الملأ الاعلى والملأ الاسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقي وضجته ان يكون لهما في كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا ان الحرص المقيت او الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب ان لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى اعلى مقادم السمعة الادبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين ان الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة ان يشترى السنة السفهاء ويكم افواههم ، فاذا استطاع ان يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق او بغير حقَ فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الافهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟!

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح الناس الا ماجورا . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة تمنى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح واللوم وأن ليس للحشرات الادمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوى المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعا او تواروا عن العيون . هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من اعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والاريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء لقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخلفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتال شوقى وزمرته على شهرتهم ومن اى ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ويعلمون انها آفة واى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها

وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى . فانه يعتدها آلة شرف واحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من اوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الاوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود ان تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فاما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الارواح وهداة العقول ، وان يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وافراد العصور ، فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها ـ الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الاعلى وطلاب الكمال الأسمى لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا نزكى شعراؤنا من بعد رفق اسجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . الا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى اوربا لما قدر ان يمكث بعدها اسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها ادبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا تدرى مم يستنكف فى سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقربا الى طلبته .
والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد بة كل مورد واذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شان لنا معهم .
نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان أشبه بملحق ادبى فى بلاط امير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه باصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها مئات المقالات فى نقد الأدباء المشهورين كتابا كانوا او شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثن مقالتين او ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا ادعى الى الريبة ، وكان فى امانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء فكان شوقى يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحدا واحدا واكثرهم احياء يرزقون . اضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه فى العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا ان يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :
اولهم محمود سامى باشا البارودى (لانه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبرى باشا (لانه احدث عهدا بالباشوية والوزارة) وثالثهم احمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

ابراهيم (لانه احرز الرتبـة اخيرا) ويلي ذلك خليل افندى مطران (لانه حامل نيشـان) فطائفـة الافندية والمشائخ وهلم جرا كانما يرتبونهم فى ديوان التشريفـات لا فى ديوان الاداب !!! فبـذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا اسم شوقى مشفوعا بافخم الالقاب غارقا فى صيغ الاطناب والاعجاب . وكانه يخشى ان ينسى الجمهور اليوم ما وصف به امس فلا يرضيه الا ان تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وامير الشعراء وسيد الادباء ، وليت شعرى ما ضرورة هـذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولما رسخت هذه الالقاب المأجورة صدقها العامة واشـباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها ـ ولم لا يصدقونهاويرددونها واكثرهم لا يعنى من الادب بكثير ولا قليل ، وجلهم انمـا يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟! فان كان فى الامر موضع للعجب فهـو ان تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقـدا ـ مع ان الاغراق فى الثنـاء احجى ان يغوى بالمنافســة ويكثر من النقاد . ومتى علمت عـلة السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فاصبح لا يقنعه ان يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج ابواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لاحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما اطول عذابه ان لج به هذا الوسواس !! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم النـاس خليق ان يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويسـد الاذان ويضيق رحب الفضـاء بالاجـرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله باطوار النفوس فان الاذان اشد ما تكون استعدادا لقبول الذم اذا

شبعت من المديح واسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى انه يؤجر اذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ انه لا يدرى ولا يبرىء المريض أن يدرى بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ،فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حيلتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن اساليبهم المستهجنة يأسا من صلاحها فى هذه الأيام . اذ يعلمون أنها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف اسرارهم . ونقول لشوقى أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قيظها . وانه ليلذ لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل فى غرض من الأغراض فانها لذة نادرة فى هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان أبلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن أنها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الأدب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدى الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح فى كل شىء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف فى

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة لمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا .
فليس اصلاح نماذج الآداب بالامر المحدود او القاصر على القشور ولكنه من اعم انواع الاصلاح واعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الاثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى القراء اننا نغلظ له البلاغ ونصحه صحا شديدا . وكذلك ينبغى ان يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه وتسخير المأجورين . على اننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل احدا اقتناعه . ومن كان يحتكم برايه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثلة كلاما . وانا لبادئون : —

رثاء فـــريد

اصاب شوقي حين قال ان قصــيدته في رثاء فريد من خــيرة قصائده . فانها في مســتوى احسن شــعره الاول والاخير ، وهي صورة جامعة لاسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين او ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجرا في بناء شهرته ، لانها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غــيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركاكة في الاسلوب وتعثر في الصــياغة تنبو به الاذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب او الشــاعر ان يوفق الى جملة مستوية النسق او بيت ســائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعــذبه الافــواه لســهولة مجــراه على اللســـان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمــات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيــه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغــة المقبولة — فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجاري » فقــد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة واخرجت المطابع مئــات الكتب التي

صاغها اقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار الافرنجية او اطلع عليها الناشئة فى لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى او الادبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الاسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء ان يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارىء المطلع ان يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشىء من القــراء مزية تتخطــاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق اذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة فى ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، أغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتســاءلون : « ماذا اصاب شوقى » ؟! ويغالط قراؤه الاقدمون انفســهم فيخيل اليهم انهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ،وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا انفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغضبون انفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا ان شوقى الامس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فاصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين او عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب فى ذلك ولا فى بقائهم على احلال شوقى محله الاول مع انحدار شعره فى نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى فى مكانه لأنه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس فى نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس ان القارىء يرتقى فى الاختيار اضعاف ما يرتقى الشاعر فى الاداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الاربعين فان اخصب أيام

الشعر ايام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتشاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم اصحابه ان زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد احس شوقى بالتغير من حوله فآده ان يستدركه واعيته الزيادة فى سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته فى فريد وقرىء له فى نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال : تلك قصيدة اردت بها الكلام فى فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

تعود ايها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من افواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو اخس من بضاعتهم وابحس من فلسفتهم ــ كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون فى الازقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، اللى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا التقاه » الخ . . . الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على المنية غاد	**تتوالى الركاب والموت حاد**
ذهب الاولون قرنا فقرنا	**لم يدم حاضر ولم يبق باد**
هل ترى منهم وتسمع عنهم	**غير باقى مــآثر وايادى**

الخ . . . الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه احط من ذلك معدنا واقل طائلا وافشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . واكثره اتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته

سواء او بيت حذفه افضل ، مثل اخباره بان جر النعش فى مركبة او حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا   منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما احسب احدا يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة فى نفسه هزؤا وعبثا . وذلك حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو   علم الحق او منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر فى جغرافية شوقى الاخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق الآخرة لئلا يضل احدهم النهج او يصطدم بصخرة فى دروب الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ايقاظا ونياما كانما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها   اجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الموت الى اهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن اسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤبن

وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذى زعموه

فى قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان اهل الميت اذا مات فى برلين او لندن او الهند لا يزالون يترجون يوم اوبته ، ويعدون ايام غربته ، وكان العلماء فى

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات غريبـــا عن دياره ايؤب الى اهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتما بالعافية او لا يؤب ؟؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقى فافتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة كل خطيب :

قال ناقد اديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامى « اعطنى عمرا وارمنى فى البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيرا واقل ظرفا اذ يخاطب القارىء بقوله « أفقد العمر » وذلك العامى يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب وتقــول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهــة ، ومن جهــة اخرى فان من يتجشم لاجل الانسانية أن يغوص على هذه المســائل العويصة ويسـهر الليالى فى فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس من حســن المخاطبة ولا يكلفوه ان يابه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل ابيـــات شــوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها ـــ فمن هذه الابيات نبا عجيب فحواه ان فى العالمين نعشا واحدا تنقلهم اعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى　　　تنقل العالمين من عهــد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعم ان الامم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعــلم مراده . والا فان كان يعنى ان هذه الخشــبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فاى شىء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيـــــة لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال اى انسان لا يقول اليوم او بعــد مائة جيل انه ركب مركبــــة فرعون ونام على سرير قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا　　　وطـوت من ملاعب وجيـــــاد

شــاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننـــا

نخشى ان لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها واعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى اية لغة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغبراء اسقطت من أيدى الملوك قضبا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وابادت خيلا لا تحصى » — فما اشبه الحكماء بالمغرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا
وتنحى لمنجل حصاد
تلك حمراء فى السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الاجل فى كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . أما ان طلعت فى الارض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا الا فى أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الاويقات لا قتل ولا حصاد فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل ...

الا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم ان يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الاشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

معقوف فطلبوا له شبها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ، لانه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه وان كان لابد من التشبيه فلتشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة او سكون او ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فاحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الاوهام . وافتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الاعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسى لأن الاعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما فى سائر الايام فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الارض :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحى على الاجساد

وذلك من قول ابى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الاعمار بالطحن ولا باس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عنـد هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء .. الخ »

ليت شـعري تعمـدا واصرا
أم اعـانا جنـاية الميـلاد ؟
كذب الأزهـران ما الأمـر الا
قـدر رائح بمـا شـاء غاد

يعني الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جنـاية الميـلاد وما الفرق بينهما ؟؟ أيريد أن يطبق على الأزهرين المـادة القانونية : مادة القتل عن تعمـد وسبق اصرار ؟؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما للقدر الرائح الغادي ؟؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على شاعر الانس والجن فلعل هذه من أبياته التي صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننـا .

ويقول في نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لهـا الزمـام لجاءت
وحـدها بالشهيد دار الرشـاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقي ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت فيقـول شوقي ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحـده الى مصر !! لله ما أقدر رأي الشموس على احالة الجليل مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده في البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضي ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جادا لا يلوي على شيء قبل بلوغه ، والنـاس متنحون عن

طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. افمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقى . اراد ان يقول كما قال البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

فى وسعه لسعى اليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحيــاة محرابا واجتواها غابا وصدف عنها سرابا ــ لابس منها خفــايا اسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر اطوارها ، فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجـالها وتلك سبيله . واين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل ارفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه من آلامها اعراضة امير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشــاعر فى فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثارا للعرب على العجم نلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشــاعر من يشــعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها والوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشــبه وانما مزيتــه أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم أن يتعاطفــوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس اخــوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كدك من التشبيه ان تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو اشياء مثله فى الاحمرار فما

زدت على أن ذكرت اربعة أو خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والالوان فان الناس جميعا يرون الأشكال والالوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والالوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفـاذه الى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشـعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجـودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطىء فى نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع الى مصدر اعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطـلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات كما تعود الأغذية الى الدم ونفحـات الزهر الى عنصر العطـر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهنـاك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغـة وما أخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره فى مظهـره الضيق القريب ، حادثا متكررا لختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة المبهمة . رآه كما بدا منذ القدم لبداته الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حربا سرمدية قائمة بين قوتين خفيتين ميدانهما كل نفس حيـة وكل ذرة فى طبـاق الأرضين وأجواز السماوات ـــ هاتان القوتان هما الخـير والشر أو

هما النور والظلام او هما الحق والباطل او هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، واعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختـام .

نظر المعرى الى العالم الارضى فلم يكن سرير محتضر ما راى ، ولا نحبا مقضيا ما احس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهـــدم ما تبتنى الور
قاء والسـيد الرفيـع العمـــاد

وعلم ان القوتين اللتين هذا اثر نضالهما فى الارض فاعلتان هذا الفعل لا محالة فى اشرف كواكب السماء واسماها ، واضوا عوالم النور واذكاها .

زحـــل اشرف الـكواكب دارا
من لقـــاء الردى على ميعـــاد
ولنار المريخ من حـدثان الدهـر
مطف وان عـلت فى اتقـــاد
والثريا رهينة بافـتراق الشمل
حـتى تعـــد فى الافـــراد

لا بل راى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال .

واللبيـــب اللبيـــب من ليس
يغتر بكون مصـــيره للفســـاد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق افراح الانسان واحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجـد فى ملتى واعتقـادى
نـوح باك ولا تـرنم شـاد
وشـبيه صوت النعى اذا قيس
بصوت البشـير فى كل نـاد

واذا ذكر متاعب الحيـاة فكانما يذكرها ليصرفها عنـه بنظره القانط المستخف فيقول :

تعب كلهـا الحيـاة فما اعجب
الا مـن راغب فى ازديـاد
ان حزنا فى ساعة الموت اضعاف
سرور فى سـاعة الميـلاد
اسـف غير نافـع واجتهـاد
لا يؤدى الى غنـاء واجتهـاد

كذلك كان احساس المعرى بسر الموت ، وهو اوسع احسـاس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك أدرى بما تنظـر وترى ولكنا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر فى رؤيته الى غير الحواس ـ انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء وبين منـازل الارض ودارات السـماء . اردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغـزى تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، أذ ما علمنـا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادى لان احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطـاع

الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب .
واما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكمدك الناس اسما اسما
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فاى
فضل فيه لغير الحواس واى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القويم ؟؟ وتقول فى القبر انه منار المعاد .

وزمـــام الركاب من كل فـج

ومحـــط الرحـــال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وســـهران منهـــا

قـدر لا ينـــام بالمرصـــاد

وهذا كذلك بل اضعف اما قولك .

لبـــد ســـاقه الردى والظـن

النسر من ســهمه على ميعـــاد

فما احسبك تدعى فيه لنفسك اكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيـات
المتشابهة فى القصيدتين الفيناك تخطىء فى كل بيت تسرقه من المعرى
او تاتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحـــدا مرارا

ضاحك من تزاحم الاضـــداد

ودفـــين على بقـــايا دفـــين

فى طـــويل الازمـــان والابـــاد

وليس اجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب
الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضـــداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لابلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالاحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك ان تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عـــدلا
وقيـــاما على حقــوق العبـــاد

نـــزل الاقـــوياء فيـــه عـــلى
الضعفى وحل المـــلوك بالزهـــاد

صفحـــــات نقيـــة كقــلوب
الرسل مغســـولة من الاحقـــاد

التراب ينصف العبـــاد ويصون حقوقهم احسن صـــيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من اقواهم وأظلمهم اشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك انك ابدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقلته لغير غرض ــ اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزيز على خلـــط الليـــالى
رم افقامـــكم برم الهـــوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .

وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعرى :

خفف الـوطء مـا اظـن اديم
الارض الا من هـذه الاجسـاد

وانت تقول :

والغبـار الذى على صفحتيهـا
دوران الرحى عـلى الأجسـاد

المعرى يسال :

ابكت تلـكم الحمـامة ام غنت
على فرع غصـنها الميـاد

وانت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول :

ضاق عن ثكلهـا البـكى فتغنت
رب ثكل سـمعته من شـاد

ثم يروقك وانت تبـارى المعرى مبـاراة المضحكين ان تزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لانك مجبر فيه لا مخير . اما الأمر الذى لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها أسمه ولا سيرته الا عرضـا ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذلك لضيق فى مضطرب القول أو لنقص فى بواعث الاسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك فى قضـاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز او كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلاحنـة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وانت باسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، او ينوى الذم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . واشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث اراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست ادرى اى ماجن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء احدى العيان :

رحمة العود والكمنجا عليها
وصلاة المزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر فى مثل هذا الموقف ، او عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه ــ اسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب	فى الارض (ملكة النبات)
امست (بتيجان) عليـ	ـه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيـ	ـبته واقعدت الجهات !!!
فى ماتم تلقى الطبيـ	ـعة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الارض) من	جزع مواثل كاسفات

والزهـر في أكمـامه يبكي بدمع الغـاديات
حبست اقاحي الـربى والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمـان آ بت بالخـدود مخمشات

بل مما لا مراء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعاني الدقيقه والنكات الانيقة ... لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر او الشعر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما في غضبه ورضاه ، وفي لهوه وبلواه ، ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته وكراه ــ ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الاهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة او يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفـن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلي من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، او قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقي لم يوف هذا الفرض فحسب بل أرانا ان الازهار لا تجرى على سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيل دمعة أسفا لفرقته وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من ألوان المذاب التي تلم بالمعادن الصلاب ــ ولو كانت النكبة في عالم « جيولوجي » لـما قال شيئا من ذلك بل كان يقـول (مثلا) ان الطبقة الرملية في ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ،

وأن الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وأن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بهـا الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه أبقـاه الله لن يقنع باقل من الحـاق الزحاف والاقواء والخبن والسـناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون، وأى تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر النـدابة فى صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعـواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال فلن نطيق الصبر على حداد الاصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيـا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الانسـان ان الاشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التى ما برحت قاعدة فى مكانهـا منـذ الازل ، ولا من الهين ان يحشر الطبيعـة « لا اكثر » فى مأتم تكون فيـه احدى النائحـات « فقط » ولا من اللعب أن يصل فى كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعـادن والاحجار ــ ولا سيما النفسية منها ــ كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكى يقول الرجل الفانى منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعـانى العميقـة ، لا غنى له عن التضحية بالذوق السـليم والوصف الصـادق والتخيل الصحيح والشـعر الجدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنـه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهـه امتعاضة حزن أو مسحـة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنـه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه أولئك السـذج البلهاء ، الذين يحسـبون ان الاخصائيين اذا ماتوا فجعوا احدا غير المواد التى

تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى أحـد أولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمـة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، او يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية او نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود ان نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي وافتنانه ، والاشادة بخلابته وبيانه . لولا اننا آثرنا أن لا يفوتنـا سؤاله عن انواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي اقامهـا ـ ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء في ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » !! انه سكت عن هذه الانواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم لان من خواص تلك الانواع التي يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون انها مضيعة للعهد ناكرة للجميل !! أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان !! ام هو الصدق في الخبر والامانة في التبليغ اوحيـا اليه ما قال فذكر فريقـا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحي باهتة ذابلة على غير عهدها وابصر شـقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربأ بشعره من شـهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبـائع وقسوة القلوب !! تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنـا منذ الآن ان نرقب اعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الانباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل ان تنبض بها أوتار البرق ويطير بها النجابون ، ولو اننا عرفنـا ماذا ينبغي ان تحمل الامة من موت الاخصائيين من رجالاتهـا ، وانها مسـئولة ان تضن بأرواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة أو تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العــالم الطبيب فقال مفصلا مقسـما :

امــا مصــــاب الطــب فيــه
فســل بــه مــلأ الاســـاة
اودى الحمـــام بشيخـــهم
ومابهـــم فى المفصــــلات
ملــقى الـدروس المســفرات
عن الغـــــروس المثمـــرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحـوه الأول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له او توبة عنه وانما خانته القريحة وخذ له الاختراع . والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة ــ مثل هذه الأبيات .

طــــربت لمصرع غـــــالب	فى الارض رســـل الحميات
قد مات (غـالب) جنـــدها	فتمردت بعــــد (الممـــات)
امســت جراثــيم المــلاريا	من ســــرور (ظاهـــرات)
وتفــــرق التيفـــوس والــ	تيفود فى كل الجهــــات
وتالب المكـــــروب والــ	ـبكتريا بعـــد الشتات
وبكت قـــوارير الصـــيادل	بالدمـــوع الســـــائلات

فهذه ابيات ليس لنــــا من فضل فيها سوى فضل التقليـــد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليل لنا فيم اخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء وندنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتيــاز » الأصلى يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فانه ليس اغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها .

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهكمون ؟؟ واما والله لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام يعـرض له فيه بعمله وصــناعته مسترسـلا فى الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع ان يضرب على اوقع من هذه

النغمة . فليت شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أيذوق الشاعر المفطور الذي يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذي لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن أذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغي أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما اخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان ـ أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ، والثاني انما يخامرها في أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته .. !! الا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن في دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذي تمنونا بلادة الاغبياء بالتحرك لانتقاده اشنع هذا النوع واقذره لانه كالورم الذي يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوي العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار ـ خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج في طبائعها واذواقها انها تلفت لفرط ما أخلدت الى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التي بقي لها أن تمنى بها وتكررت لها ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز من احتمال الجد والتمادي

فى الهزل واللجاج فى السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فاصبح جهد الذوق فى زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانسانى وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الذوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية ـ الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ فى دمائهم وهم يسمعون انينهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب ! ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان فى ذلك العهد !! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد انه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية
لله احيا الوميات

يأمر الشاعر المرثى ان يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع ان الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التى يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هى النظر الى ميت يبعث . . . فهل سمعتم فى العى والاحالة ما هو احمق من هذا اللغط الفارغ الخاوى ؟؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى اوروبا او امريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى

ان بعث العلامة المدرج فى اكفانه اغرب واشد استحالة من بعث الموميات التى يعنيها شوقى لان موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لا رجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء الا أن يرى المعجزة التى قد رآها ... وبعد فليذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى
وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شأمتنا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره .. أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!!

ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتممان ما فيهما من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله
فاتى باحدى المعجزات
عيسى الشعور اذا مشى
رد الشعوب الى الحياة

ففي كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما في معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هـذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول أن الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحيـاة هي التي تنشيء الشـعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحري أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة اوجز ما توصف به انها نكسة ادبرت بقائلهـا ثمانيـة قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك ايها القارىء شاعرا من شعراء الغـرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافهـا ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمائل نفوسـها من آدابهـا وفنونها ، الى ان سيق اليه ضنيمة من صنائع شوقى فاسمعه ان ها هنا شاعر يدعونه امير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الالقاب الا لقبـا مزدوجا ، فهو اما شاعر الشرق والغرب او شاعر الأرض والسماء او شاعر الانس والجن او شاعر الاقدمين والمحـدثين او شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — الى اشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لاحـد كائنـا من كان فى العالمين : وقد تعلم ايها القـارىء أن أذكيـاء الغربيين وخاصتهم لا يالفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شـاعر كشكسبير أن يدعى شـاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى او هوجو او جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم ايامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد انه يجب

ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وان يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال اعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعه الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقى :

اثن عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم ان فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الاوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا اليفة — ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد ان تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما أشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد احال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا ان يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى المعقول : فاما ان الشرقيين ركبت قلوبهم واشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربى الى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . واما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيا ويموت الاخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرىء من قلبين فى جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه اخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين او يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتذاء اسلوب الشعراء من الامم النازحة والاجيال الغابرة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة» .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها اخاذجي والقازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الالقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها فى مستقبل امة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب باليقين ـ فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة بيابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
فى نهضات الامم بالغزل صادقا كان او مستعارا ، وان يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر
ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح
والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان
اعوزته دلائل الحكم على منحى افكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم او
يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا .

* * *

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لان فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم
بساطتها ان يفهموا على اى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فاى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ربقة

التقليد لا يشعر لاول وهلة بالخلط الشائن فى هــذا الضرب من الشعر !! ما الشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته انه اجمل وابلغ واحسـن وضعا للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد !! فلو انه كان صادقا فى عشـقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسـجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!

* * *

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة، تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقائها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر فى الاغراض التى من اجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة لم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السـليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الامراء والاجواد فى اقاصى بقـاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يبداونها احيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الاحبة والم الشوق وطول الشقة واحيانا كانوا يصفون الناقة التى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطـوى ومواصلتها الليـل بالنهار سعيا الى الممدوح كناية عن الشوق الى لقـائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شانه وتكبير الامل فى مثوبته، فكان الابتـداء بالغزل ووصف المطى فى قصـائد نظمت فى المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشـابهة لا يعـد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشات الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع ان يحتاج الى النموذج والاستاذ فاقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين او مقتـدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسـنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وافرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها واشهر هؤلاء ابو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع ابو تمام فى يائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

وكما صنع المتنبى حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحا :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هـكذا هـكذا والا فـلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عنـد انصرافه من ارض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار او انعدم ونشأ من شـعراء الحضر جيل كان احدهم

يقصد الامير في المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التى انضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بمنزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول ابواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال .. ، يجيء شوقى فيتماجن ويتصابى في مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل امة ويقول فيها :

قد صارت الحال الى جدها   وانتبه الغافل من لعبه

ويجيء اناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وانه عصرى بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذى استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذى ليكت معانيه واوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صماليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعانى التى نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل في وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « ارداف مرتجه كالكثبان اى كاكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالاقمار أو كالنجوم » . «مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فاما الموضوع فلا تقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها

الصحف يومئذ لولا انها متناقضة متدابرة وانها خلو من الاسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد او بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى	وزاده خصبا على خصبه
لولا استلام الخلق ارسانه	شب فنال الشمس من عجبه

وانه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان اشعر الشعراء ولكن (مكره اخوك لابطل) .

ولا اسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين اشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن اشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا اظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها ــ حضرت منظرا من هذه المناظرة فاخذت المطاردة ماخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى ان وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال ... فليت شاعرنا الكبير الذى قرع ابواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته

ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرؤس فى طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وارساته يمنعونه ويكبحونه ـ لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ » .

اما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن ان يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر اكبر من المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق اشعار المقلدين بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الأغانى والالحان . فان المنا به الماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها فى اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب فى مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . اما فى أوربا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها ان يطبع احدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهور التى كتبها فى الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغانى للحكم فى اناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة — وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منها . فمن شروط الحكم فى الاناشيد القومية ان يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعانى ، مطلعا على اناشيد الامم ، بصيرا بأخلاق الجماعات واطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين اعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين اعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التى

تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
واذا علمت ان الرجل من الاخصائيين يقضي العمر في فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسالة فيصيب ويخطيء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فاحر بك ان تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق ان بعض اعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندري لم تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم سمحوا لأحدهم (الاستاذ عبد الحميد مصطفى بك) ان يجهر في الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من اكثر الأعضاء الى رفضه ؟! بل لا ندري لما ارجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا؟! أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن ان يضع انشودة واحدة ؟! ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في احدى الفرق يلحنونه ويروضون انفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الاوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في اناشيد مجهولة ، واسرار مكتومة ؟! فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟!

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد في اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا … فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن ؟! … الـخ الـخ

وقال ان البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟
فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الاتيين ومعناهما:

جعلنا مصر ملة ذي الجلال　　　والفنا الصليب على الهلال

واقبلنـا كصف من عوال　　　يشـد السمهري السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذي الجلال » ونقل الى ان أحدهم قال :
اننا نجعل مصر وطنا يشترك في حبه ابناؤه ، واما ملة ذي الجلال
فهي الملة التي يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذي الجلال »
وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟.انما يقال اتحدوا في الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهري ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعتـه . ويظهر أن النـاظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها .
أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيينا　　　ويبقى وجهك المفدى حيـا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع في
كلام صحيح فلم يستطع اصـلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
رضاك مصر الخ » ــ وقد نشر كذلك في صحيفة الاخبـار ــ فلم
يقتنعوا . فجعلها اديب في النسخ الاخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين اعضاء من المغنين والعوادين
جيء بهم ليحكموا في اي الاناشيد اصلح للفخر القومي واشد اعتلاجا
في النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه في
اللحن الذي يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الواني فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم الى الامل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة في سمع التاريخ ونحوها في المواقف والازمات فانظر اين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروي بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي أن تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل انسان ان ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها اصوات الذل والضراعة والحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ويسمعها الصاحي فينام .

ثم نذكر تبرع شوقي بالجائزة لنادي الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه يطمع في مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من اعضاء نادي الموسيقى ، والنادي بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحي ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقي . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رايه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف اصحابه انه يتقي أن يرمي بالحسد ان أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان يثني على النشيد في الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما اعلن الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقي سكت .

وعلمنا غير ما تقدم امورا لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة في جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له او عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتمس فيه ابسط الخصال التي هي قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط في النشيد القومي قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسـان الشعب وموافقا لكل زمان . وهذا ابسط ما يطلب فى اناشيد الأمم . فهل نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط او بعضها ؟؟

فاما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده . وكل مفاخره افرغت فى قالب هو اقرب الى الأخبار منه الى الحماسة . واقواها قوله :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه اخـذ الامانا
ونحن بنو السنا العالى نماما اوائل علموا الامم الرقيـا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول « كلا لى بيت سعته كذا من الاذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة .. » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟؟

واما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه لم عن اعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » « تهيا » و « شيئا » شيا : نعوذ بالله من الشى .

واما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مـكانكم تهيـا فهيـا مهـدوا الملك هيـا
خذوا شمس النهار له حليـا الم تك تاج اولكم مليـا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعـز ركن
اليس لكم بوادى النيـل عدن وكوثرها الذى يجرى شـهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هـذه المناقشـة ؟؟ أ اجنبي يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطأ شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد أن ركب حمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى علية ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا باذنى حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك أو شمالك .. فكأنما كان شوقى على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما امكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لأن نشيده كان كما وصفته اللجنة « اكفاها واوفاها بالغرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للاناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه فى نشيد امة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى فى المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان .. فياحبذا النشيد تتغنى به امة فيكون مطلعه عنوانا على جلهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء أن ناخذ على شوقى مبالغته فى قوله : « خذوا شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدابنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به فى جميع العصور ان يتهيأ مكاننا . وان لا نبرح نشرع فى التمهيد وناخذ

فى الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك وتهم بتشييد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه ان يكون فال الامة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الانفة ، واجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتمة البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الاديان أن ترتله فى البيعة أو تشدو به فى الكنيسة او تصلى به فى المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعتــه لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد ــ وان المسيحى لا يدعوا الله به فى كنيستــه لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غير دينــه ، وان الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيــا صناعتــه تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى احدهم طعــام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتى احسبه احيانا يتعمد الأمعان فيها ويطرقهــا من الباب الذى يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصــاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطر له أن يجمع شفاعات الاديان اجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى

لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ! انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قراناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطؤه فى النشيد أخف واهون ، من حيث ان الاناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى لمزج الاديان فى الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق ان لا نجعل وفاق الاديان مباهاة ومأثرة ، لان المرء يباهى بالشىء النادر او غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبديه اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت اناشيدها من ذكر الدين ؟ ! اتراها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة فى نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . اما وقد اخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك انهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

نشأنا نشأة فى المجد اخرى   الخ الخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط فى الانشـــاد فيخلفه المـد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فاى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته

تقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة ـ نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقراه احد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشـــيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رايهم . ولا اخفى عن القارىء اننى ما كنت اظن فى جمهور قراء الادب اســـتقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنـة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشـــدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومى

رأينا ان ننشر هذا النشيد بعد ما كتبنـــاه عن نشيد شوقى ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذى يخشـــاه شوقى من التفات الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقى يملأ طباق الارض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشـيدين لا يخفى على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الأناشـــيد التى اختارتهـا اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابهـــا جاز ان نقول انهـا حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشـعراء) ويرى القارىء التفاوت بين النشيدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقى مخاطبـة اجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى النيـــل واحفـــاد الالى
اطلعـــوا الفجر لتاريخ قـــديم
رفعوا الاهرام والعـــالم لا يبتنى
الا خصـــاصا من هشـــيم
اذكروا ان ثرى هـــذا البـــلد
من تجاليـد الجدود العظمـــاء
لا تطئهـــا ارجل العـــادى الالد
وبكم أبنـــاءهم بعض الدمـــاء
تربهـــا التبر المصفى المنتقـــد
لا الذى يقنى الشحاح الادنيـــاء
فامنعـــوا كنزكم ان يبـــذلا
او تعيشـــوا عمركم عيش عديم

لن تروا فى الارض عنـــــه بدلا
ما لكم كنز ســـوى هــذا الاديم
****
اذكـــروا ان عليـــكم واجبـــا
لبنينـــــا فى بطـــون الأعصر
فاحفظوا هــذا التراث الواصبا
فهــــو حق الوارث المنتظـــر
نتقـــاضى الأرث عصرا ذاهبـــا
فلنصـــنه للعصـــور الأخــــر
ســـنؤديه اليهم اكمـــــلا
لم يغـــيره زمـــان او خصيم
فحمى مصر تحـــاماه البـــلى
وبنوها خـير من يحمى الحـريم
****
اذكروا حاضركم كيف يقـــــام
ليس يغنينـــا تليد القـــدماء
ما التماثيل الهيبـــات الجســام
وابو الهـــول رهين الصحـــراء !
ما المســـلات على باب الرجـام
والنواويس وفيهـــا الوميـــاء !
ما عظـــيم تالد من العـــــلا
فى ثنـــايا حاضر غير عظـــيم !
فاجمـــلوا عهد العـــلا متصلا
كاتساق الدر فى العقـــد النظيم
****
اذكروا مهمـــا بلغتم ســـؤددا
انكم لم تبلغـــوا اوج الكمـــال
ابعـــدوا فوق المنال المقصـــدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنـــال

كم عبـــدنا قرصهـا المتقـــدا
فاتقـــدنا فى حمـــاس ونضـــال
نبتنى الهيـــكل يتلو الهيـــكلا
خالدا فى ساحـــة الرمل مقـيم
وســـيبقى موطـن الشمس الى
يوم لا يبقى لهـــا قرص ضريم
****
اذكروا ان التفـــانى والغـــلاب
فى ســبيل المثل الأعلى البعيـــد
نفثـــا فيـــكم وانتم من تراب
شـعلة غراء من معنى الخـــلود
شـــعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفـــلوا الفوز العميم
مثلمـــا اضرمت النـــار على
مـــذبح الرب بمحراب كـــريم
****
اذكروا ذلك وامضـــوا قـــدما
لا تكن وجهتنـــا غير الامـــام
تزدجينـــا دقة القلب كمـــا
يقـــرع الطبل لجـرار لهـــام
فنســـوغ المـــوت ذودا للحمى
ونذيل العمـــر ســـعيا واعتزام
فبحـق نحن احفـــاد الالى
اطلعـــوا الفجر لتاريخ قـــديم
رفعوا الاهرام والعـــالم لا يبتنى
الا خصـــاصا من هشـــيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنم ولا كالاصنام . القت به يد القدر العابثة فى ركن خرب على ساحل اليم ــ صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و ــ لم ــ لا يخلق الله والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها واشعرها الحاجة اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟؟

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما ارادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا لجج مزبد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة ــ وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها عذبات الاشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الاصال وروعة الاسحار . ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الازهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة ابهى الصور او الخضرة فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

فى الصباح البليل وقد انقلب اكمسه الانداء فتساندت رؤوسها كان سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لان باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس نفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا أغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين انقاض حياته يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما اعجبه شكله أو حاله او آثاره نبذه واهماله « انا اله الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الامواج برش من سخرها وتسك انقابه برعد من ضحكها فما اجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا فى طوفان من الأوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . واى بكم اعظم مما اصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد ان يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الادب ؟

وانت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الادب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح دينا جديدا « لاطفال » هذا العالم او أن يحدثهم بما احب اسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه ان يذكر انهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاستمرأوه وانه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب او شاعر الا بالاداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبي اسحاق الصابيء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب في تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون ان يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا اكبر الاسباب التي افضت الى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الادب لانه لا اسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل » كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس أصداء متقطعة لاصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا ان شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمي للاشعار مقتدرا (؟) والقوم في غفلة عني وعن شاني
هذي المعاني تناجيهم فما لهم لا ينصستون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الايام في قوله :

ارمي بشعري في حلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال

مجاراة للمتنبي وتقليدا له في قوله :

انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمل وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارىء الا أن يحس انه اصاب موضع الداء . اما شكرى الذى اراد أن يقلد هينى والذى زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « ادرج » فى قبرى قتيل الحب واليأس
فمن يصدح بالشعر ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليل لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية ما يرجو فى حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا ان نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء — وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ ثورته اذا بلغه هو ان « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه الذى يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لأنهم لا يستمعون اليه . اليس هو القائل فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر انى تمر بى الحسان فترتضينى

ولا ادرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه أنه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيه وتجسسه بعيونها وأكفها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل اذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الغـرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج ان يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس واطلقها من قيود القافية ــ والوزن احيانا ــ لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا معاتبا الغرام :

اتقصـــينا ونحـــن مقـــــربونا
من التبيان والأدب الغـــــزير

ولعمرى ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من التبيـان والأدب ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شيء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الافلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول و من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الارض عن مآتمه فاء تاض عنها برقة الجحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله ــ أن كل ما فهمناه من البيت هو المقصود ــ ان المشنوق سيظل معلقا فى الفضـاء الى الأبد أو أن الارض تضيق عن شيء من المآتم او المحامد أو أنها هى التى لفظته واعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على ان شكري متكلف لا مطبوع وان ما يزعمه من انه من أهل المذهبالجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

« واذا صلب احد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق واظهار الذميم مظهر الحسن .. وليس أدل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق بل فى اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به وادناه الى المتاخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عيثا لا طائل تحته » أو ما جدره أن يكف عن دعواه أنه من رجال المذهب الجديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع أن يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن انه يكفى أن يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون فى نظر الناس حديثا سائرا مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذى يعتقده شكرى فينا تراه يقول فى مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهة) يخلق الجيل الذى يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا
كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أو قوله فى فلسفة « تزاوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما
ومهرها الحب لا يغلو لها المهر
من لى بنفس أرى نفسى بها مزجت
كما تمازج فى وديانها القدر
والنفس فى عيشها شتى منافذها
منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الاخير) فاى جيل يريد هذا المائق ان يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) اما كفى ان فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب ان يوجد من امثاله جيل برمته ؟ واى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ واى خطب يكون ادهى واعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل ان نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا قذاله لو جزته اقرع
فجز من لمته خصلة لعلها من خلفه ترفع
فالدهر إن اقبلت ذو لمة لكنه من خلفها اقرع
مطلعه مثل طلوع المنى وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالنم صفعا له فانما يصلع اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبى وانما يقرع اذ يقرع
فاطل قفاه بمداد لعل اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا فانما يعديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه بالرغم من صلعته اروع
واحن له الراس لكى لا ترى فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لبكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة ان نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبعثرة فى اجزاء ديوانه السيئة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبوذا كما هو الآن . وما بالعجب ان يكون له بضعة ابيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أبله لجرى لسانه بجملة او جمل تلمح فيهما أثر العقل . وان كان لم يفكس في ميلفها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من اقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا فى الذهن واضطرابا فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول . وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود ـ كالمعدة الضعيفة لا ينفعها ان تزحمها بألوان الطعام وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه ايضا) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى ان يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من اسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من أن هذا حقيق أن يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وامثاله أن الخيال يجب ان يطير بجناحين من الحقيقة وأن كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون الا هراء لا محل له فى الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس فى الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفى العمق لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلاء اذ ايهما احوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو

ام ما يغوص عليه المرء فى اغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل اما على العجز عن الاداء او التدجيل او استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها .

على انه من افحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا للفطرة ان يتلكف المرء غير ما اعدته له طبيعته وان يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يحس الحاجة الى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن واراد ان يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الاول وظن ان الاجتهاد يغنى غناء الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو ابقى على خلقه الوادع وقناعتــه بميســور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها .

ولما كان السقم فى الكلام مرده السقم فى الذهن فسنبدا نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن ارفق به من ان نصدمه بذلك واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء والتذكير والالحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه ابدا الى هذا الخاطر ـ خاطر الجنون ـ وان فكرته مالئة لجو حياته والخسوف منــه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى فى طعامه يتوخى ما يظن او يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة او يساعد على المقاومة كالسمك والبيض والمخ واشباه هذه الالوان ـ وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعه انه هو المعنى به فيمتقع ـ ولا يخفى ان اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه فى روحاته وغدواته وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفى أقواله وكتاباته من شعر ونثر — أو منظوم ومنثور على الاصح — ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . واكثر اهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان ، فالعبقرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والالوان لا تفطن اليها عقول الاوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط فى بعض نواحى المخ أو فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا والجنون عبقرية . وقد فطن الأقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير ان جنون العبقرية منتج يخرج — كما يقول أفلاطون — الشعراء والمخترعين والانبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى ان يتوهم احد أن العبقرية هى الجنون فليس افحش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال أن حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجف

بعقله الداء فلا يستطيع ان يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! !
وماذا اجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع فى بئر فلا هو « صـدح » ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

والى القراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .

حنيني الى وجه الحبيب جنون   جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الاسر طرفة   وادركه حتى المسات جنـون

وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالعقل والحجى
وان لم تجىء فالقلب مجنون ثائر
ولكن وجدتنى منك جن جنـونه   فها انا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالمرء جنـونا جاعلا   نوبة للشر فيـه تحتدم
لا ينال البرء من نوبتـه   او يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معـدى عـن لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى   ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرىء غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

عسى ان تجـن النفس فيكم جنـونها
فلا ذكـرة تصبى ولا فكـر يخطـر
فان جنـون النفس سـعد وراحـة
وان عنـاء الحب ذاك التـذكر

فانســـاك حتى لست ادرى اعائش

على الارض تســعى ام دفين معفـر

فلن يبلـغ الحب الجنـــــون فلا تلم

اما كل مجنــــون على الهجـر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه أن يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب احدا منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سأل طبيبه لعرف منه ان بعض المجانين يعذبون انفسهم بما يتخيلون وانهم كثيرا ما يخلقون لانفسهم جحيما من الاوهام يصلونها ،على أنا لا ندرى من أين جاءه ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك؟ ولكنه معذور على هــذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة « صنم الملاحة » :

بلغ الغرام الى الجنون   فلا عتــاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وادركه مس الجنون واظلمت   عليه السماء والنهـار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعل لو بلغـوك   انى عرتنى جنة من هواك

وكيف لا يذهب لبىوالهوى   اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك » :

انا مجنــون بحبــك   فازل غــلة صــبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنــــون خابل   يزدرى المرء له وقع التهم

انما الحب جنون وجـوى   ورجاء واجتـــرام ونـدم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نســـبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر ايضا . قال من قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنــون كل حي فيـه مغبــون
جن من حــول ومقدرة وكذا ذو الحول مجنــون
فتضاحك ثم قــل ابدا ان هــذا الدهر مجنون
دهــرنا دار المجـــانين كل حي فيــه مســجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنت اعد الحسن فيك فطانة وان جنوني فى هواك صواب

ومن قصيدة « وحي الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم وهي تبــدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من اجلها يحس الشعراء جنون اللذة والالام » فانا اشهد الله والناس انى لا احس هذا الجنون . ولكنى احسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الاقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المستحيل على الورى
وانال من احــــلامه ما اطلب
لجننت جنـــة قادر متحكم
يرضى على هــذا الانام ويغضب

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجـل المجنون من حزن
لشد ما نال منـك البؤس يا رجـل
حتـــام تنــكر حقــا غير مشتبه
لا يكـره الحـق الا من به دخــل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه اياه راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفـــائك جنـــــة

فان رام يوما قتلكم ما تاثمـــــا

فاسقى جنـــونى من دمائك جـــرعة

وهيهـــات يجدى القتل قلبا مكلمـــا

فيظهر ان حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فاين المخرج من هذه الحلقة والى اى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاســنكم

حتى يخـــال حديثى لغو نشـــوان

نشوان ليس له عقــل فيســـكته

الحب خمرى وليس الخمر من شانى

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقـــوله وهو ادهى :

واهتف طول الليل باســـمك جاهدا

وهاجس هــــذا الذكـــر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بان هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت اشــلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر فى نفسه وملازمته اياه ابدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وان الحيــاة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنوناً مجنا وان الزمن دار المجانين ومستشفىً مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

فى كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا ان الأمر كما وصف والحال على ما زعم وان كنا نعلم ان الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الامر بمقصور على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدا يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو ــ تساهلا فى التعبير ــ مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا انه يسمع اصواتا او يرى اشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رات ما لا وجود له فى الاذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وان كان لا شك مع ذلك فى انه اضطراب محلى فى المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الاذن » أى اعتقاد المصاب انه سمع أصواتا أو ان أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تســـير فى الطرقات واشباح الآدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسال بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى ـ اعاذه الله من شر ذلك ـ فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقاً على بيته هذا :

او كئوس البدر فضيا له وتر فى القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسست كان نواقيس تطن فى اذنى . وان الذ الانغام رنة الفضة المجوفة » اه

فهذا كلام لا مجال فيه للتاويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ اموراً :

اولها ـ ان البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لأن معناه مفهوم بدونه

وثانيها ـ أن ما (يطن) فى اذنه « كلما » راى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض ـ بتقريره أن الذ الانغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » الذ « الأنغام » وان كانت « اخلص » الاصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار ـ مع التسامح فى عد الرنة نغمة ـ لا يمكن أن يعد « الذ » الانغام .

وثالثها ـ انه كلما راى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة أن « ضوء القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب الى إنها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب ولكنا قد اطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزىء بملاحظة اخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بانه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبا روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان راس الزبون تشبه راس الخروف فاغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا أن نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى واشرنا عليه بالانصراف عن كل تاليف او نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها ــ وهى كثرة مروعة ــ يرجع الى اينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الابكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجــزء الثانى

أدب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا القطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ احدنا المناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه او ربة بيته ازيلي هذا واتي عليه بالمكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولي على الميدان ويخر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى ان تقر الامور قرارها وتاخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في ناموس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتأتى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التامل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا أن

يفتحوا للذى تبين اعينهم او ياخذوا لانفسهم بالتى هى املأ لايديهم واعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم ان يكرروا الفاظا لا يعرفون لشيء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من اجلهم نتكلف ان تكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى اقامها نفر من الادعياء نشأوا فى غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم الى سنن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى الا من الصب او ياخذ الا من المعدن مؤثرة الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر الى اضدادها — لهؤلاء الذين هم معقد الامل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونمدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون اضوأ لها واكشف منها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟ !

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات واسوأ المنكرات ما عرض لهم فى الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضا من غير أن يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضن الزمان بمثله ويعيى الامم مكان ندهِ . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى تنبيه او ان يتجشم احد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط

فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادىء وتفصيل الاصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستورنا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبداءة غنيان ؟ افلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها ادوات الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء المقلدون فى امر الادب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون راى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها والادب شىء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لان مرده الى اصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى اى قالب صببته وسبكته وباى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الامال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضلال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطي

عنى السيد المنفلوطي بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسها عليه في كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الامر الا من حيث دلالته على طريقة السيد في الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الالقاب والمناصب في عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزفوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا إلى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول في « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر رواياته وقصصه في اثر هذا وذاك على اننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الاوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

* * *

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يشبه ان اولهما — ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال — ينتهي نسبه الى الحسين بن علي جد كل مسلم ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل « تفاقم » الذرية . وثانيهما الى اسرة جوربجي التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد أن يزيد على هذا في بيان نسبه الا اشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد في منفلوط من مدن الوجه القبلي في جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدي الى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشي أن يضل القارىء ويختلط عليه الامر فيتوهمه مقذوفا به الينا من المريخ — والحق أن له العذر في خوفه هذا اذ ليس في كتابته ما يدل على انه مثل ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته فنقول وليته .اذ عني بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ما هو حقيق ان يعين الناقد على تقدير اثر العوامل الوراثية في تكوين اخلاقه النادرة التي يصفها بانها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائي صلفا وكبرا وما هي بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل في نظره أطواره . وعفة حتى عن مد يده الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفا فاذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة وايمان قوي كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب بلب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى اصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كانما المرزوء سواه وليس أحقر في نظره من مدح المادحين ولا احقر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس ابغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برايى البليد الى آخر مًا لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الادب الجم الذى جمله — كما يقــول — الكاتب الفريد الذى يحافظ على اسلوبه البليــغ فى جميع حالاته وشئونه ســواء فى ذلك المعــانى المطروقة لكتاب العربية الأولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المسب لا يحدثه الا عن نفسه ولا يصدر فيمــا يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما افدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرانا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر انه اورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده ان يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتا تذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز نقيصــة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتبه الســيد الشريف الجليــل المصرى التركى الحسينى الجوربجى

المنفلوطي الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن آرائه واخلاقه وفضائله ومحامده واسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويالها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف ايها القارىء من اى ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وانما هى شجاعة .. الطعام !! نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارىء اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وافضحه باسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى ان يخشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم الفم تستحى العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجرى على السنن العامية فى كل شيء ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه الالسن — وهذا هو السر — فاعلمه — فى انك لا تسمع به فى هذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما ترويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وارسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الاحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق ان يعد من أجله كاتب و أديبا الا اذا كان الادب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا المائقين يقول : « ان فى أسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قد دمى مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئا لحبك ــ ذات الوشاح دم طل فيــــه بلا عاقل
وحبى ذكــــرك حتى لثمــــت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة ــ كلام مصقول لين الانحــــدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نثرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الامر ان صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطري والرخاوة ثم ذهب يقول انه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطري ويكفي لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وأمثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله الرجولة والعقل . ومهيار يعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين — أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الا عربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شأنه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقة في خدودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا أيهم أعظم تطليقا للعقل واتيانا بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . أما الطلاوة فتجدها في مثل قول الشريف الرضي :

أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما امرك في قلبي واحلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عنـــدى رسائل شـوق لست اذكرها

لولا الرقيب لقـــد بلغتهـــــا فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الاول ذكر المرارة فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هـذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربى اجدى وانفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لا غضاضة فى ذلك ما دمنا ندعو الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع فى الاطراد والى احساس الشاعر باللذاذة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة فى مصراعيه وتوازن قوتها فى شطريه وكيف انه مع هـذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبـارة موزونة على قـدر الاحساس لا اكثر ولا اقل ولو انه كان قال « أنت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما امرك .. الخ » لاحسست التنـافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما امرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ فى حسنه :

كأنمـــا صـــاغكم كيمـــا يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله فى صدر البيت ـ فانك تحس اذ تنتقل من الشـــطر الاول الى الثانى كأنما قذف بك من رأس جبل اشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتا وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشـدها من غير حسـاب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها ممـا لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من اخف مراتب الحب واولها ولا اكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لا ينبـو مـع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت ـ من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بانها رسـالة لا تبلـغ الا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا اردت ان تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقـع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزىء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغـرائى مجاراة له . يقـول الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حذر

على الذى نام عن ليلى ولم انم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه ان كان لهما وجود :

يا صاحبى اعيشـانى على كلفى

بمن تناوم عن ليلى ولم انم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وامسـت الريح كالغيرى تجاذبنا

على الكثيب فضول الريط واللمم

يشى بنا الطيب احيانا وآونة

يضيئنا البرق مجتازا على اضم

فيسطو عليه الطغرائي ويصوغهما في اربعة ابيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنا وفرشنا الرمل وشته يدالديم

والليل يكتم سري والصبا كلف بنشر ما كاد تطويه يد الظلم

يانفحة الريح باتت بين ارحلنا بالجزع تسفك بين المنفر واللمم

نهبت طيبا واغريت الوشاة بنا ياحبذا انت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنها وهي غافلة

حتي تكلم عصفور على علم

فيضمه الطغرائي في هذا البيت المتحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنا فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائي هكذا :

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم

فيابى الا ان يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لي قلبه القاسي ومكنني مما اريد فلم آثم ولم الم

ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبي والعذاب له فما امرك في قلبي واحلاك

فلا يرى الطغرائي ان يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى انست به

فهو المرارة يحلو طعمها بفمي

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادي في الزمان هوى

الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائي يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطغرائي لا يسيغها المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين اوضح من ان يحتاج الى جلاء . ولعل القارىء قد رأى مما اوردنا ان الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

* * *

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف اسلوبه بالنعومة أقرب الى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب الى ادنى منه وليس أدنى من ذلك الا الانوثة وهى أحط واضر ما يصيب الاديب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها ان يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس اقتل منه للرجولة ولا اعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا اقل من ان اسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » .

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفا على المساكين امثاله . ولو شاء لقال ان الناس جميعا كذلك ان كان يريد أن يذهب الى هذا المعنى لأن كل امرىء طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى

الحيــاة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفتــه ان يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل اليها بدونه ، بل هى تنتفى اذا امتنع وبطل .

وهذا شىء يعرفه كل احد ويحسه كل حى . وقد فطن اليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن آيات هذه الفطنة — فطنة عميقة مستولية على النفس — انهم قالوا ان فى الوجود قوتين متنازعتين ابدا وقوة الشر التى تطغى بالليل وتجلل فى الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الى آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح فى جميع الاديان وان تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقــوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفى أوهام العامة التى تعزو الامراض الى فعل الشياطين وفى خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغــاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحيـــاة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحســه الأطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب ان ليس له من عمل فى الدنيا الا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل اضعف من الدودة الجوالة فى جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهي فضيلة لا يقبلها رذيلة ان صاحبها بالغ وغلا في الامر لانه انما يغرق في النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون ابلغ في التاثير ويتناهى في الدعوى استندناء للغاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل او الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتاتى الا باستمانة العقل والعلم عليها . ولكن لا باس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي اخلاق المنفلوطي ؟ هي بالفاظه ـ او ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ ـ انقباض عن الناس ووحشة ـ عفة حتى من مد يده الى ابويه ـ كرم في الخلق طالما كان سببا في وصول الاذى اليه ـ حلم يظنه الظان عجزا وضعفا ـ صمت طويل يحسبه الناظر عيا ـ ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم(١) مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما ـ وليس احقر في نظره من المادحين له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه ـ لو ان الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك منهما ولو أنهم اتفقوا على راى مناقض لرايه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب ـ يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا ـ يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض ـ ان كان في اخلاقه ماخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من

---

(١) قال نيتشه الشاعر الناقد الالماني « من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده » .

الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم — وطنى بتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه .. الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراة معدومة النظير فى التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية — فيلانثروبست — وان اسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الاغلب والاعم .

* * *

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما ان تكون مصدقها فتنظر فى دلالتها او مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايا لك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس اندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وابعد مدى واعمق. هاك دلالة هذه الاخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة او المركبة توجد فى حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من الدهش ان يكون البخل من اعضاء ما يسميه (فيرى) اسرة الامراض العصبية . وحب الانسانية — فيلانتروبى — نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية ايضا وشرح هذه الحقائق فيما اسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك ان بعض مراكز المخ — واحدا او اكثر — تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات او الاجابة عليها فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الآراء او تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم — كما يقول المثل — لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات ان يخرجوا —

بغير مبرر معقول ـ عن كل متهم وكل ما ملكت أيمانهم لفـائدة جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالممودين او المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض او الاضطراب العصبى وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطي فى هذه الكلمة التى كانما كتبهـا صاحبها لما نحن فى صدده وايهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ ان تؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى اعصابهم أم تقول كذب فيما ادعاه لنفسه وان ما به ليس ايثاراً وحبا للانسانية متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل انوثة يتوخاها فى الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لاحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القـارىء لهذا الكاتب اخفهما واهونهما فى رايه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما اشدها وظلمة يأس ما احلكها واحساس بالعجز المطلق والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تغشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته او فى علاقاته مع أسرته او بيئته واوساطه والتى لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويانس الرشد من سماته او من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه او من

يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هـذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم ــ أى تعليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو سـواه ؟ وأى باعث عليها غير عـدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشـل ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كأن يكون مكسورا او ان تكون انبوبته مسدودة أو ان تكون أسنانه بالية واما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل او المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

اهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو احد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فاذا كان احساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ما ليس فيه اسـاءة وهو الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما أن تكون الظواهر الخداعة أو الأنباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الاساءة وتعمد الايذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا الى الوسط والعيب عيب القفل ــ أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف ــ أى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الاجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الادراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى اشياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات «قصة اليتيم»

ونعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انهـا على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثـلة الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط فى الرقة والانوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات ــ حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة .

وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريبا بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرية اذا به يسمع انينا او حنينا او صوتا خافتا او توجعا او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه ــ من العمر ملقى يتوجع على سريرا او حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر انوثته ثم يموت الفتى ــ وهو ما لابد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على ابطاله ــ فيغسله ويلفه فى الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه ألتى كأنما لها « زر » فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى اسبوع واحد !!

فيالله ما لهذا الحانوتي النـدابة وللأدب الذى هو حياة الامم وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقهـا وحافزها الى اجل المساعى ! لقد كان المنفلوطي يستطيع ان يتعظ بمصير ابطاله المخنثين ــ ان جاز الجمع بين النعتين ــ وبموتهم فى شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وســع قــرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهـم ومرض نفوســهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسـوجين على منواله وان اخوف ما نخاف على هــذه الأمــة ان تجد هذه الجرائيم ترى صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة عشرة من عمره أى قبل ان ينضــج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا أن يزهى بهذا النجاح وأن يفتتن بما وقفت اليه باكورة اعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفســه مرة ثانية وثالثة ــ ظل الى أن مات لا يندم على شىء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها من أيدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر أنها وصمة لرجولته ؟! لأن فرتر بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من أن يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى اهون من أن يكبر المرء أمر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وأن مما يصم الرجولة ولا شك أن لا يكون صحيح الادراك للأمور وأن لا يستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فاين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلابك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولانعمم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور ان افلح ومعذور ان اخفق

جيته ــ تلك الصخرة القائمة فى لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والأهوال ــ هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذى قرت منذه ثورة « كارليل » الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامه ويستقيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته ــ ان صح هذا التعبير ــ وينسى جموحه مع المعانى وركضه فى حلبة متوعرة من الأداء فجاء اسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر فى سهل دمث من الأرض .

ولعمرى ما أبعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة الادارك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التى لا نعرف لها مثيلا فى كل عصور الادب التى مرت بالامم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التى صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات ابوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه واحسن اليه احسانه الى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن اوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم ـ اما كما كان هو له أبا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد ان تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وامرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فاكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر واسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فانسل من البيت ليلا وآثر ان يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم أن خادمته فى بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع ايها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شىء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسى أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوز الاجمال الى التفصيل .

ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل ام ولم تكن تعلم ان الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا اعلم هل كان ما كنت اضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء او حب وغراما ، ولكنى اعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا امل أو رجاء فما قلت لها يوما انى احبها لانى كنت اضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى ان اكون اول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوما من الايام ان اصل أسباب حياتى بأسباب حياتها — ولا حاولت فى ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما ان استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لا علم اى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك او منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على ارادة ابويها » .

فما ذنب امراة عمه اذا كان قد شاء أن لا يتكلم او يقدر او يتسقط او يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه بخبيئة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امراة عمه أن تزوج ابنتها شىء يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه أن يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة أن يريبها شىء من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعى . ولا شك أن فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقا أن يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه أن مات ! اليس الواضح البين انه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزا ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذي لا يعتا يتطلب التعارف الجثماني الكفيل بحفظ النوع . لاكهذا المسكين الذي لا يدري أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته ام حب الرجل للمراة . ولا يقدر في نفسه ان يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول ان يعرف ما عندها له او يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضي من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذري الذي لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس اعلى منه للحياة — واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس — والانقياد للمراة كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الأصابع للأشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات . . .

لا . لا يرضي هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لا يطلعون على الحياة الا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة في ذلك فان من لا تؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائي لا يسعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رايه في الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهي نتيجة يعلمها من له اقل المام بعلم النفس وبتاثير الايحاء لا سيما في الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الاعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتاثير هذه القصص المنحوسة انى اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان يكون على راس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك لأن هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطي

اما اسلوب المنفلوطي فى هذه القصة وفى سواها فاسلوب رجل لا يبالى من اى مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر أن سيصل منه اليه ولا اى بلاء يهديه فى احتيـاله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغـلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منـه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشـدة لا يفيدهما ان يلقيه ساذجا ويدعه غفلا واول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس الى اخره دون توقف واعتراض . ومع ان قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيهـا اكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحـد لا يكون الاسلوب اسلس واطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة فى كل شيء وآلى ان يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارىء فى اى كتاب يفتح من كتب الادب .

ومعلوم ان الكلام لا قيمة له من اجل حروفه فان الالفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ . وانما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معنـاه لا . اجل جرسـه

وصداه ، وإلا لكان ينبغي أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلابد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ وأن كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه مرء أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الرأي أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارىء أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو افقار لغناها — كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم أغنى في باب الادب من أن يحتمل هذا الحشو ويصبر عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الأداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطي لأن اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا أداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطي وكلها لا ضرورة اليها ولا داعي الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذي يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الاخرى .

١ — وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوبا) .

٢ — فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٢ ــ ثم لم ازل اراه .... أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (أنين) الوالهة التكلى .

٤ ــ واتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥ ــ وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .

٦ ــ وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .

٧ ــ فشعرت براسه يلتهب (التهابا) .

٨ ــ واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) ــ يصف نحوله .

٩ ــ فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .

١٠ ــ فتنهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .

١١ ــ اصبحت معنيا بامرك (عنايتك) بنفسك .

١٢ ــ فانزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .

١٣ ــ ١٥ ــ فعنى بى (عنايته) بها وارسلنا الى المدرسة فى يوم واحد فانست بها (انس) الاخ باخته واحببتها (حبا) شديدا .

١٦ ــ ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المنون .

١٧ ــ فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كاسها .

١٨ ــ ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد .

١٩ ــ وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .

٢٠ ــ فرحلت (رحلة) طويلة .

٢١ ــ هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء ــ يعنى غرفته ــ (دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

٢٢ ـ فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣ ـ وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .

٢٤ ـ وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقا) .

٢٥ ـ ٢٦ ـ اشعر براسي يحترف (احترافا) وبقلبي يذوب (ذوبا) .

٢٧ ـ ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشبان واحد فى كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما أوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه ـ يعني المنزل ـ شريدا طريدا حائرا ملتاعا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئا » وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء او لا يعلم أن هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لأن الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لأن الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدرى اى الرموز اللفظية أكفل بالعبارة النامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك امر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الاكاذيب الشائعة اذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحدا على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء في المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل او كثر ، فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا ان نسأل ايهما يعني على التحقيق واى مدلولاتهما المتفاوتة يقصد اليه ويريد منا في فهم المراد او تكوين الصورة ان نعتمد عليه ؟ لان السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما ان المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على اصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت او كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

اترى سيسمعنا السخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حماقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا اصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج الا الى ايسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضها الى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا الا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل الى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ في العقل او مجاز الى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة او مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فأن أحدنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم او كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الالفاظ المستعملة المسوقة من شأنها ان تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجمل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تاليفه الكلام فان رايته يدور منها فى حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليهما فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والق بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطي لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الأرض أحد اذل منى ولا اشقى » ـ « ومارئى مثل يومها يوم كان اكثر باكية وباكيا » او هذا التاليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رايت وجوها غير الوجوه » ـ « وما هي الا ايام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فانما نمثل ولا نستقصي ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر ـ والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تاليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطي ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وانه لا يزال يعالج التاثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتاكيد فى صوغ الكلام وتصوير المسالة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة اى فى الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد الف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تاليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد ان نلقى على هذه القردة درسا فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر ..وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ماضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الامة التى نكبت بهم على

قدر صدر أعينهم وضلال أفهامهم ، ولكنا ماقصدنا قط الى إمالتهم عما هم فيه وان كانت الخـزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من الشيء اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا اريته رأى .

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما لا يدركون الشيء أو يصدمهم فنقول ان ههنا فى ناحيـة من الطريق شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ الغادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى أى هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التي عليه والسـلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعانيه الى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفته وتصوره وانت ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا أوامره ونواهيه ـ هذا وربما ذهبت تعتبره مرة أخرى من الجانب المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عـدم التلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده الى الجدران وذهول نظرته او حواره مع الباعة وتأتيه الى غايتـه وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جلبتـه أو تواريه فى الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره صورة تركبـه فيها بالدعابة فانت قـد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت الى امره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الأولى جادا وفى الاخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبـارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهـة النظر الى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغـايتك هى ما نسميه اسـلوب التناول ولا شبهة فى ان المرء ينظر الى الامور من جهات معينة ـ من ناحية الجد او الهزل أو المالوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقـارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلـغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصى لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون أشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب ادق النظر واشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف منها وهل اللغة التى استعملها صادقة وهل السلوك الذى عزاه الى أشخاصه مما هو معهود فى الآدميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه فى ميزان لم يقصبه لنفسه ولا كان فى باله ولا جرى له هو وامثاله فى خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الادب لا شأن له بهذا الاهمال او الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحية للحياة . وهى هى ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا أن تعدوه كاتبا اديبا فلا مسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من اى معدن هو . وانتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم مانرتضى لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ فى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظما الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى اثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة ـ او النظر المخلص الصحيح ان شئت ـ لايتفقان وان الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون اديبا وان الاديب لا يكون معمدا ورائدا وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب ان يقطعه الانسان ويعادي بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط فى هوة الابد وجاء زمتنا الشادي بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمي الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطي ــ وما اهول هذا الانحدار ــ فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصه لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا فى غير هذا الباد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالأدب الحي.

يحسب المنفلوطي ان تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته ــ وانى له ان يفهم هذا ــ انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل ام قصير ونحيل ام بدين وهل فى يده كتاب ام عصا ونائم هو ام جالس !! وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الأشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخوالج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطي فلا خير فيه بل الخير فى اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يعني انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب ــ وهو بطل القصة ــ فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الأولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فارى امامي فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب او يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة او يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف راى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟ ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصــــباحه وقد أكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لمـا الم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث أن عاد الى نفسه » .

وهى لاتفيد ولايمكن أن تفيد شيئا سوى انه بريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى أنه احس انه موشك أن يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضــاق وحتى لو كان الوقت وقت الظهيرة المتقدة المتممة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصــابه لم يجد ما يخرجه ممــا أوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت أيها القارىء هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم أن الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينة رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجا فامرت الخادم أن ياتينى بشراب كان عندى من اشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ! لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو توكات عليه لانهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع ان يسمعه احد الا في مستشفى المجاذيب ! ومع كل هـذا النحول احتـاج صاحبكم المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب ان انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما اورد من هذه التليفقات المنكرة ولكنى أساله الصبر على هذه الجملة ايضا ـ دعا المنفلوطى الطبيب فجس المريض وهمس فى اذنه ان العليل مشرف على الخطر ـ ولا عجب ان يصير الى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطى ـ شراب حماه ـ ثم دفع اليه المنفلوطى الاجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين اسقيه الدواء مرة وابكى عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر » .

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعـد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطى امره أن يعطيه الدواء بعد كل ... بكاء !؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات له طفلان فى اسبوع واحـد « فسـكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما » !!! وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى الناس يحادثهم حتى كأن المرزوء سواه .

وبعـد أن اسـتفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطى عليه وابلا من الاسـئلة وهو يعلم انه فى مسياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال انت هنا ؟ قلت نعم : ارجو ان تكون احسن حالا من ذي قبل . قال ارجو ان اكون كذلك . قلت : هل تأذن لي يا سيدي ان أسالك من انت وما مقامك وحدك في هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد او انت من اهليه وهل تشكو داء ظاهرا (بالعمى) اوهما باطنا وهل لك ان تحدثني بشأنك وتفضي الي بهمك كما يفضي الصديق الى صديقه فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب ان الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو فعل وهو ميت لا محالة ـ بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذي انتهى بين يدي هذا الحانوتي بعد أن فرغ من الحديث الذي يملأ احد عشر صفحة من تسع عشرة فما اطول نفسه في ساعة الموت ! وما اخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهل الفتى ان يطالبوا المنفلوطي بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

شوقى فى الميزان

٢

عرضنا (شوقى) فى الميزان لاول مرة فارتج به ارتجاجا عنيفا وايقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حظ به لم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبونى لست بالشاعر اليس لى فخر آخر ادل به ؟؟ »

نقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الاثر ما كنا نقدره لاربعة اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه ـ اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه فى اسبوع او اقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل . ومنهم الاذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفســه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التفيير ، وفى هؤلاء امل لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجاة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوســة الحصباء ما يشق تسويته او يعسر عند الياس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء ـ وبالحرى المتحدثين ـ الذين لم نوجه اليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لمـا يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربيــة الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن احــــدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمنـــاحة التى اقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن باصنافه فى تلك المناحة فظن ـ صان الله لشوقى اعجابه ـ اننا انما انكرنا سكوته عن القطن واردنا منه ان يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟!

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فمـا رأينا احر من سخطهم ولا اكثر تصنعا لاسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

* * *

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا اوهن قصــائد شوقى

واكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن اجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة ــ كما قلنا فى الجزء الاول ــ هى ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هـذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد الى شـــاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأنى ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعـاهة فى الذوق والاعوجاج فى المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

اما ثانى الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما احوج البرهان فى هذه الى الشـــدة وما اقل ما يغنى فيه اللين والهوادة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !! كاننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لايهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى اشنع ضروبها !! واى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟! فنحن لا نرى للرجل فى انفسنا قدرا يتجافى به عن اخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه فى توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فانه لا يعرف كيف يغضب .

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هـــذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟! بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الأول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجدير بشرف الأدب، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان ، لا في سالف العصر والأوان . وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعـــاهد السحرة والجان ، انسي يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص — لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكي في النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله — ويدعى المستر هيوز — وقف فطلب الى القضـــاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان امرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه اقل مسحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة — وعندي

ان هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتغريم الشركة اربعين شلنا تعويضا للاهانة التى الحقتها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الادبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير فى غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب اديب الغربيين ويقول محاميهم انه اشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا امير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن امير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الادبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « اسرى مروءة الدنى وادنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لان هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقى بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ الم ينظم ابياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بل فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والافراح والسمرات :

لله ريشة صادق من ريشة	تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها	حسنا وفكتها من التقييد

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

تهدى لحسن الخط كل مقصر — وتمد فى الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان نظروا بها — من ريشة الالماس عند الغيد
والذوف الطرس ان خطرت به — من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيى مؤنسا بصريرها — وتقول ايام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الأمر الا انهـــا — مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة — شعر لا يتابه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دراجة ابانت ان اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشـــة كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسـب ممن ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر يا عنب » والذى يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » انمـــا يرشف من البحر الذى تغرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة فى العالم كله » و « ولم لم يكن فى الامر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضـــون الريشـــة ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!

وبعد فان المرء ليزدرى العقل الانسانى نفسه ان قيل ان هؤلاء الصماليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقيـــة من ذوى مزاياه وحملة امانته فى الأرض . فالأدباء فى الامم هم عنوان حياتها الروحية والفكرية ومعيار لمـا تحسه من مفاخر الحيـــاة وقوى الطبيعة ومعـــانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة فى الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة اميرا كان او مامورا تفخر الامة الحية بانه صورة ما فى نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما فى رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط فى الوجود ، وتراث مقسم بين ابناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلغى بنفسه فى غمار الآداب الغربية ، وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهابها ومتجهاتها وتجاوب اصدائها واصواتها – ابواب للكتابة منوعة ، ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر فى كل شية من شياتها ، محسوسة فى كل خطرة من خطراتها : متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها . فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الادب الذى يدعيه اولئك الاميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على رقمنيه ولعلعه وذاك مدبرا الى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . او كانما هى الاثقال الى القرار هاوية . فصدق احدى اثنتين : اما أن ادبا تسمعه من هؤلاء اشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الانسانية . أو انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم ادباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل ويش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض لعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « للكتور المصرى »

يساق دمائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدينة الحديثة ان اقلام ادبائها احدى الحواجز التى تصونها ان ترتد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة او تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من اسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية ـ فأى عصـــمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ الا ان العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن أن يفهم الادب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكأنما شـاء القـدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علية القوم يثنون عليه فيغترون بتشـــيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء العلية اذا اعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسنوا . وانها إن هى الا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فاخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملأ كي يشاركها في الابتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة مما اظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول .

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين ـ وهم أعضاؤها الاخصائيون ـ اختارت نشيد شوقي واعلنت اسباب اختيارها له في منشورها وهي انها « انتهت في مناقشتها الى انه اكفاها وأوفاها بالغرض واجمعها للمزايا التي ينبغي أن تتسق لنشيد قومي » وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد القومية . ثم انهم يذكرون ان فريقا من اعضاء نادي الموسيقى من الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف أن الاستاذ انما يتكلم برايه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدات هي امامهم واقبلوا يسالونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذي تصفقين له !! نعم لم يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيرها واجترأ الموسيقيون على الافضاء بآرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول

المنهرمين . فقد اخذ يزعم انه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة في مسرحهم . كانما النشيد مشي بقدمين الى ديوان لجنة الاغاني !! وخشيت اللجنة ان يكون حكم الامة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر اعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطم ؟؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات ؟ واين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الاغاني بيدها وانكشف طلسم كان من ابهر طلاسم الشـــهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعني به طلسم الاسماء الخلابة ووهم الالقاب الجذابة . وعندنا ان لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغاني ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤوب اليه بعد ان تكون قد ابطلت وهم العامة في امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فقـد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضـــلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاظهـــار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم في شهر ديسمبر الماضي وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم في عدد يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذلك الشهر: قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد القاء القصـيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى في الحفلة التي اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علمــاء وكبراء وادباء واعيان فازدحم بهم المكان ثم اقبل نائب الامير محمـــد

بك جلبي باشمماون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافة للكشاف الاعظم ثم ابدأت الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الامير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الامير ساعة ذهبية اثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة الاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الامير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتما من الماس ووضعه في أصبع الاستاذ القصري وقدم له سيادة السيد محمد ابو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية انشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم واقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتامله القارىء وليتصور اسم شوقي مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في انصافها وفي الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي تنهض اليه لولا أنها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية كونكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثنى عشر الف فرنك للسابق من الأدباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة

المصرية فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
افيدرى القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسي يسأل من شأنه فاذا المسئول والسائل في العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات العام . مؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم امس جهلا تاما وان كان قد طبع فى الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص .. ولم يكن احد من اعضاء المجمع يعرفه الا ان احدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم امس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع دونهم بمشمل النصر » .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحيى كل ملكة صالحة للحياة وهم لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بان ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ! ان فى ذلك لموعظة .

* * *

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول اننا عرفنا رای القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفيء الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسأل الله ان يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان اقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رای الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رای الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الأمثال :

شوقى لولاه عباس فاظهره والیوم يخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولافيسة وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنتقده ؟ قلت وماذا عساى ان انتقد ان لم انتقد الهراء والزيف والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت اظنها آية لأحد من العالمين وما حسبتها الا زلة اسقطته فيها « مغالبة الشجون لخاطره » او داهية خانه فيها امكانه الذى ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعقنى   فيك القريض وخاننى امكانى

وما دهاه الا العجز والفهاهة والحرج . دهته اولا فاجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى اربعين يوما ثم زاد كثيرا من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فاما وقد علمت انها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبآيته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى من ذلك واضعف ، واضأل فى الضئولة واسخف ، اراحه الله من شعره بما اراح من اقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه فى وصب وشقاء . ولقد فات اصحابنا سماسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما اجاد شاعرهم فى رأيهم او خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على اداته وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان ابعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمى كلما امعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع فى ما آخذناه ونآخذه على شعر شوقى وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله والشواهد التى يبحث عنها لابراز مآخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن اشهرها واقربها الى الظهور واجمعها لاغلاطهم عيوب اربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هى التى صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقى الرفيع المترجم عن النفس الانسانية فى اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى من المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة اثر ظاهر فى هذه القصيدة قد لا تجده فى غيرها من القصائد الا مزويا او دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع ان يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى القالب اجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غاليه .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو ان تكون القصيدة مجموعا مبددا من ابيات متفرقه لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافى المتشابهة اكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه فى الأعاريض واحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى او الموضوع وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر او خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا أختلف الوضع او تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وافسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين او القدم عن الكف او القلب عن المعدة . او هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتابدين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز واقداره فى تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الادنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم انه الفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد او شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض او كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل الشىء فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين اجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب

صالحة لان تحل فى اى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين اتمه فى اشرف المخلوقات واحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى اجناس الناس كما تتمشى فى انواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتاخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة	حص اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون باكلة او شربة	بعمان اصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . وتقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الادب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت ان تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من ان الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورايتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون افخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الابيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين ابيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السليقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم ومضات نور متقطعة لا كوكب صلد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

او كانما هي ميدان قتال فيه الف عين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على اعضاء جسم فرد تسري فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه ان تجعل عاليه سافله او وسطه في قمته ، لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وها « كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء ان يضعها على اى وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها او يختلف مجراها . وتقريرا لذلك ناتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول ليقرأها القارىء المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على قضاء نضيمه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا — قال شوقي أصلحه الله :

١ المشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني

٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد ... في الله من خلد ومن رضوان

٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى ... في الزائرين وروع الحرمان

٤ السكة الكبرى حيال رباهما ... منكوسة الاعلام والقضبان

٥ لم تألها عند الشدائد خدمة ... في الله والمختار والسلطان

٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا ... في المحفلين بصوتك الرنان

٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ... ما غاب عن قس وعن سحبان

٨ جار التراب وانت اكـــــرم راحل
ماذا لقيت من الوجــــود الفــــاني
٩ ابكي صباكو لا اعاتب من جنى هــــذا عليه كرامة للجـاني
١٠ يتساءلون ابالســــلال قضيت ام
بالقلب ام هــل مت بالســـــرطان
١١ الله يشــــهد ان موتك بالحجــــا
والجـــــد والاقـــدام والعـــــرفان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هــــذه الدنيا فانت الباقي
١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيــــه آمال لنا واماني
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجــدان
١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومضــــلل يجري بغير عنـــان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رســـــل الله قد جبنوا لمــــا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمـــــــان
١٨ المجــــد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهــــا الاخــلاق كالعنـوان
١٩ واحب من طـــــول الحياة بذلة
قصر يريك تقـــــاصر الاقـــــران
٢٠ دقات قلب المـرء قائلة له ان الحيـــــــاة دقائق وثوان
٢١ فارفع لنفسك بعـــد موتك ذكرها
فالذكـــــر للانســــــان عمـــــر ثان
٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المضيق لمؤثر الســــلوان
٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني
٢٥ ومنعم لم يلق الا لــذة في طيها شجن من الاشـجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والأسرار والاعــلان

٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا غاز بغير مهنـد وسـنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العـلوم دعائم العمـران
٣٠ لفوك فى علم البـلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيـان
٣١ ماأحمر من خجل ولامن ريبة لكنما يبكى بدمـــــع قان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانمـــا فى نعشـــك القمـــران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا يختـــال بين بكى وبين حنـان
٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهـو حقيقـة
وجلالك المصـــدوق يلتقيــــان
٣٦ شـقت لمنظرك الجيــوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتــون غـــوان
٣٧ والخلق حولك خاشـعون كعهدهم
اذ ينصــتون لخطبـــة وبيـان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر أم باى لســان
٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جـوانح الاوطان
٤٠ اوكان يحمل فى الجوانح ميت حملوك فى الاسماع والاجفـان
٤١ او صـيغ من غرد الفضائل والعلى
كفن لبســت احاسـن الاكفـــان
٤٢ او كان للذكـــر الكريم بقيـــة
لم تات بعـــد رثيت فى القـــرآن
٤٣ ولقـــد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معـــــالم الجثمـــــان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وساعات الرحيـــــل دوان

٤٥ ونواظــر العواد عنـك امالهـــا
دمــع تعــالج كتمـــــه وتعــانى
٤٦ تعلى وتكتب والمشـــاغل جمـــة
ويداك فى القــــرطاس ترتجفــــــان
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى
وانا الذى هـــــــد السقام كيانى
٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف. مصـارع الشـــجعان
٤٩ ووجـدت فى ذاك الخيـال عزائمهـا
ما للمنـــــــــون بدكهـــن يدان
٥٠ وجعلت تسالنى الرثاء فهاكه من ادمعى وسرائرى وجنانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيـك يتيمـة الازمان
٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعـــــود ســـــيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجـــل فوق النـــــيرات مكانى
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقـتـنى
فيـــك القـــريض وخاننى امـــكانى
٥٥ هـــون عليـك فلا شـــمات بميت
ان المنيـــــــة غاية الانســــــان
٥٦ من للحســـــود بميتة بلغتهـــا
عـــزت على كســرى انوشـــروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشــــانى
٥٨ يا صب مصر ويا شـــهيد غرامها
هـــذا ثرى مصر فنـــم بامان

٥٩ اخلع على مصر شـــــبابك عاليا
والبس شـــباب الحـــور والولدان
٦٠ فلعـــل مصرا من شبابك ترتدى
مجـــدا تتيـــه به على البـلدان
٦١ فلو ان بالهـــرمين من عـــزماته
بعض المضـــاء تحـــرك الهـرمان
٦٢ علمت شـــبان المدائن والقـــرى
كيف الحيـاة تكون فى الشـــبان
٦٣ مصر الأســـيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظـــــــامك حان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهـــارة
ملك يهـــاب ســـؤاله الملـــكان

* * *

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تابى ان تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان احرى بها ان تسمى اربعة وستين بيتا منظومة فى كل شىء او فى لا شىء . فاعتبرها ايها القارىء على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر اربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها ربحت وعادت احسن نسقا واقرب نظما ـ قال شوقى ايضا :

١ المشرقان عليـــك ينتحبـــان
قاصـــيهما فى ماتم والـــدانى
١٤ وجـــدانك الحى المقيم عـلى المدى
ولـــرب حى ميت الوجـــدان
٢١ فارفع لنفســك بعـد موتك ذكرها
فالذكـــر للانســـان عمـــر ثان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهـــارة
ملك يهـــاب ســـؤاله الملـــكان

٢٧ يا طاهر الغدوات والروحات والخطـ
ـــــرات والاسرار والاعـــــلان
٩ ابكى صــــباك ولا اعاتب من جنى
هـــذا عليك كرامة للجـــانى
١٩ واحب من طـول الحيـــاة بذلة
قصر يريك تقـــــاصر الاقـــران
٥٦ من للحســـــود بميتة بلغتهـــا
عــــزت على كسـرى انوشــروان
٣٦ شقت لمنظرك الجيـوب عقــــائل
وبكتك بالــــــدمع الهتـون غــوان
٥٥ هون عليـك فـلا شــمات بميت
ان المنيــة غايــة الانســــــان
٢٠ دقات قلب المـرء قائلة لـــــه
ان الحيــــــاة دقائق وثـــــوان
١٣ بالله فتش عـن فؤادك فى الثرى
هـــل فيــه آمال لنــــا وامانى
٦٠ فلعل مصرا من شـبابك ترتدى
مجـــدا تتيــه به على البـــلدان
٤٣ ولقـد نظرتك والردى بك محـدق
والداء ملء معـــــــالم الجثمـــــان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وســـــاعات الرحيـــل دوان
٤٩ ووجــــدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنــــون بدكهـــــن يـــدان
٦١ فلو ان بالهـــرمين من عــزماته
بعض المضــــاء تحــرك الهـرمان
٤٦ تملى وتكتب والمشــــاغل جمـة
ويداك فى القــرطاس ترتجفــــان

٤٥ ونواظر العواد عنك امالهـــا
دمـــع تصـــالح كتمــــه وتعانى

٤٧ فهششت لى حتى كانك عائـــدى
وانا الذى هـد السقام كيـــانى

٥٠ وجعلت تســــالنى الرثاء فهاكه
من ادمعى وسرائرى وجنـــــــانى

٤٨ ورايت كيف يموت آســاد الشرى
وعرفت كيف مصـــارع الشــجعان

٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقـــنى
فيك القـــريض وخاننى امـــكانى

٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعـــود ســـيرتها من الـــدوران

٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجـــل فــوق النيرات مكـــانى

٥١ لولا مغالبــــة الشجون لخاطرى
لنظمت فيـــك يتيمـــــة الازمان

* * *

٥٨ يا صـــب مصر ويا شهيد غرامها
هـــذا ثرى مصر فنـــم بامان

٦٣ مصر الاســـيفة ريفها وصعيدها
قبر ابـــر على عظـــامك حان

٢٤ فى ذمة الله الكـــريم وبـــره
ما ضـــم من عـــرف ومن احســـان

٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبســـت احاســـن الاكفـــان

٤٠ او كان يحمل فى الجـــوانح ميت
حملوك فى الاســـماع والاجفـــان

٤٢ و لو ان اوطـانا تصـور هيكلا
دفنـوك بين جـوانح الأوطـان
٤٢ او كان للذكر الحـكيم بقيـة
لم تأت بعـد رثيت فى القـرآن
٢ يا خادم الاسـلام أجـر مجاهد
فى الله من خـلد ومن رضـوان
٦ يا ليت مكة والمدينـة فازتا
فى المحفـلين بصـوتك الرنان
٧ ليرى الأواخـر يومذاك ويسـمعوا
ما فاب عن قس وعن سـحبان
٢ لما نعيت الى الحجـاز مشى الاسى
فى الزائرين وروع الحـرمان
٤ السـكة الكبرى حيـال رباهمـا
منكوسـة الاعـلام والقضـبان

* * *

٨ جار التراب وانت اكـرم راحـل
ماذا لقيت من الوجـود الفـانى
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحـربها
فهـل استرحت ام استراح الشـانى
١٠ يتسـاءلون ابالسلال قضـيت ام
بالقلب ام هـل مت بالسرطان
١١ الله يشـهد ان موتك بالحجى
والجـد والاقـدام والعـرفان
١٨ المجـد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهـا الاخـلاق كالعنوان
١٢ ان كان للاخـلاق ركن قائم
فى هـذه الدنيـا فانت البانى

٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا
فاز بغير مهند وسنان
٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران
٢٢ علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون فى الشبان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تتح لجبان
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع
وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان
٣٠ لفوك فى علم البلاد منكسا
جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكى بدمع قان
٢٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانما فى نعشك القمران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكربلا
يختال بين بكى وبين حنان
٢٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
٢٨ يتساءلون باى قلب ترتقى
بعد المنابر ام باى لسان
٥٩ اخلع على مصر شبابك حاليا
والبس شباب الحور والولدان

٥ لم تالها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان

١٥ الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يجري بغير عنان

٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الاشجان

٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤ والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقي له الرحماء وهو الهاني

٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

فانظر ايها القارىء الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على اننا قد تناولنا الابيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء في الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتاتي كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟

وقبل ان نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالاشلاء الملقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول او قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة فى هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لانها لا تقام على ارجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقى . اللهم الا اذا ظن انها اعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف او ينكس لما كان فى المعنى طائل اذ ما غناء قول القائل فى رثاء العظماء ان الجدران او العمد مثلا نكست رؤسها لاجله ؟

ومنه قوله :

ان كان للاخلاق ركن قائم (فى هذه الدنيا) فانت الباني

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء اجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام فى كل لغة ولاى قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين او وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح ان يقال فى انسان

معلوم أو صح ان يقال فى كل انسان : فى السياسى والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ايفهم انه وحده هو البانى لكل ركن للاخلاق فى هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبى ان قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟

وهل لا يصح حينئذ ان يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الا فاق وفى خطيب المحافل وفى التاجر السرى والوزير المحنك والمربى المرشد والمخترع الحاذق فى كل انسان بل فى الناس جميعا بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى وثابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمداول سواء أرثيت به حجرا ام رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا اذ كم فى مصر من رجل ايقظه ما ايقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الامم فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو واقبح من السفه ــ هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الأخلاقى فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام فى هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

اذن يكون بكم المجماوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .

* * *

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هـــل فيـــه آمال لنا واماني

لو سأل : هل فى قلبك المدفـون فى الثرى آمال لنـا واماني لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . اما الذى يسأل ان يفتش فلا يصح ان يسأل هل فى قلبك آمال واماني الا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعي : يا هذا الذى يمشي هل أنت حي ؟

ولقد قال حكيم :

تمـوت مع المرء حاجاته وتبقـى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدي الهمم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنــوا لمـا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمـــان

الصواب فى اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة فى اصغر المطالب واقرب الغايات كما يقال فى اظهار فضل المـال ان الانسان لا يقـدر على أن يشترى ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شـدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن احقر الناس خليق ان لا يكـسب قوته القفار بغـير الشجاعة لـكان لقـوله معنى ، اما الاستشهاد على قـدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . اما ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم

روح الله لابد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت أيها القارىء رجـلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم فى بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى أن صح أنه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

***

والذى يقوله الناس ــ وشوقى منهم اذا شاء ــ ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامع المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع الـسالى تنفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب ! !

فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فـرأى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهامة :

فاصبر على نعمى الحيـاة وبؤسها
نعمى الحيــــاة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة فى ان يصبر الانسـان على النعمة وان تبطره المحنة . هكذا يقـول شوقى وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هـذا الشعر الذى انعم الله به عليه . ولله فى خلقه شئون .

ويقـول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكأنمـا فى نعشـك القمـران

وزعيمنا الفقيـد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش !!

ولا يقال ان صاحبنا اراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كانما فى نعشك القمر » أو « كانما فى نعشك الشمس » لما نقص فى الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر واولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

اى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بامان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء ان نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف ان يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته　　بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله اراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهـرمين فى هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته　　　بعض المضاء تحرك القطبان

او قال :

فــلو ان بالشــطين من عــزماته

بعض المضــاء تحــرك الشــطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت فى رثاء مصطفى أو رثاء باسـتور او فى رثاء ابن زريق او مشـهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأسـيفة ريفهـا وصعيدها

قـبر ابـر على عظـامك حان

* * *

مصر ايها القارىء ــ ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المزية فانها مصر بريفها وصعيدها ــ مصر كلها ما هى الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزانا بهذه الابيات ، لا لانها كل ما فى القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لانها ذات طعم وان كان رديئا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانمـا اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

* * *

(٢) التقليد

أما التقليد فاظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة واعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الانباري فوق تشويهه وذلك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لان الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة.

وقوله :

او كان يحمل فى الجـوانح ميت
حملوك فى الاسماع والاجفـــان

ماخوذ من بيت ابن النبيه فى قصيدته التى لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

النـــاس للموت كخيـل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ولو انصفوا ما كنت الا فى صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه «عوالم» الافراح فى اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من القائلات « احطك فى عينى يا سيدى واتكحل عليك » وانه ليقول كما قلن :

ولو ان لى علم ما فى غد خبأتك فى مقلتى من حـذر

وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت فى القرآن

منظور فيه الى بيت المعرى :

ولو تقـــدم فى عصر مضى نزلت
فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والعلا
كفن لبســت احاسن الاكفـــان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنـــه ذاك الثنـــاء المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصـــور هيكلا
دفنــوك بين جــوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب أن الاوطان ان لم تصور جســدا لم يدفن الفقيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى
اليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته :
لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول الشريف ايضا « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او نأى فان المنايا غاية القرب او قصارى البعاد

فاتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل على حدة .

* * *

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها فى الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال انظر ايها القارىء الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقى فعلى أى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم أربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة — وهنا يبدو للنظر فى قصر المسافة التى يذهبون اليها فى اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الاحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينتظم فى الحيـــاة الانســـانية على علاقة سطحية باختراع طارىء ؟! ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ او لغة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا ان أحدهم لو سمع

ناصحا يعظه فى موقف جد ـ وأى موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟؟ ـ فيناديه يا اخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض الساعة لاغرب فى الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز فى الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت اخواه هذان

لفوك فى علم البلاد منكسا   جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة   لكنما يبكى بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فاما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الامة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . واما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع الاعلام لاجله . فشوقى يولع بهذا العرض اذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونها دمعا ودمعها دما منزوفا . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علما ، فقد قال فى وصف الهلال الاحمر :

كأن ما احمر منه حول غرته   دم البراءة زكى شيب عثمانا
كأن ما ابيض فى اثناء حمرته   نور الشهيد الذى قدمات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون له   قد قلد الافق ياقوتا ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب   يثير حيث بدا وجدا واشجانا
كأنه من جمال رائع وهدى   خدود يوسف لما عف ولهانا
كأنه وردة حمراء زاهية   فى الخلد قد فتحت فى كف رضوانا

فهو يمثل راية الامة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت

والمرجان فى لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشيبة او دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالا ابيض فى اثناء حمرة والهلال الاحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه ــ ومع هذا فانى لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكائنات) فى ابياته الستة ويخيل اليه انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول كأن وكأن لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من ابطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس الظنون وهى بريئة عفة !! اذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة فى هذا المقام وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا

ان كان للاخلاق ركن قائم فى هــذه الدنيا فانت البانى .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت اين تنتهى بصاحبها !! وليت شعر شوقى اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟ أكان لا يرى للف النعش بها اى معنى لأنها لا تبكى بدمع احمر ؟؟ .

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة . كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد اتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسملا مرقعا من النشوز والأختباط . وما كان يسعه ان يخرج نفسه خلقا آخر فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مســتو ، ويستقيم فى اغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن الســكة الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى   فى الزائرين وروع الحـــرمان
السكة الكبرى حيال رباهما   منكوسة الأعلام والقضـــبان

والحرمان فى الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكى وكل قارىء للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيـــال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان فى مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع فى موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول فى وصف نعشه

وكانه نعش الحســـين بكربلا   يختال بين بكى وبين حنـــان

وقد رايناه يغير على قصائد الشريف اغتراه لم يفقه رائيته التى يقول منها فى مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبــه   الا بوطىء من الجرد المحاضير
كان بيض المواضى وهى تنهبه   نار تحكم فى جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه   وقــد اقام ثــلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اثخن بالجراح وانه ــ لا حيا الله قاتليه ــ مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم ارسله الى يزيد فى خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب !! ولا تقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فان زعم أنه يقصـــد موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل ســـنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رأيناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لأنهم أزكن من شوقي وادرى بما ينبغي ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتلفون بمصره في ميدان حرب لا بمدفنه في الثرى .

كان يسعه أن لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه ألهم أن يستقصي عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا يتداركه . وأن يجتهد في ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فيالحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع منه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبي ومصارعة المعري قبل ان تكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وأن نروز تلك البديهيات واشباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من أصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها ألسنتهم آيات تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفار الضافية الا شرحا وامتدادا وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كانت ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التي تطبع كل مرئي بطابعها .

فهي تارة تلم لك شمث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها ان تتفرق . كبيتي المتنبي اللذين يمدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل او غافل   عما مضى منهـا وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعي والغافل من يعي لو شاء ولكنه لا ينتبـه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انســانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المالوفة فيحسن تصويرها حتى لكان قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى   لكالطول(١) المرخى وثنياه باليد

وهذا اجمل ما يقال في بحبوحة العمر المرتهنة بالاجل

وطورا تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحتري

متى ارت الدنيا نباهة خامل   فلا ترتقب الا خمول نبيـه

وطورا تصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور

الظلم من شيم النفوس فان تجد   ذا عفـة فلعلـه لا يظلم

او كقول أبي فراس

ما كل ما فوق البسيطة كافيا   فاذا قنعت فـكل شيء كاف

---

(١) الطول : حبل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع او يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير اكثرها فراخا وام الصقر مقلات نزور

فليس الشان كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

لقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيبا فى علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما فى شئون الامم وراقبت الدول على سنن شتى من الانظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة او جزء لا اصدق ولا اتم من هذه الحكمة التى اهتدى اليها هذا البدوى الناشىء فى عصور الجهالة وانك لا تزن امة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة او مغشوشة ممتلة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير . واحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهـر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة في البكور واحترم الأستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم ـ ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصبح من فوقها .

لي دولة الشعر دون العصر واثلة
مفاخري حكمي فيها وامثـالي !!

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخزور ؟؟ انه هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التي استتبت له بهـا دولة الشعر ؟؟ هذه هي :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته — وليس اذا الاعلام خانت بخذال
والعلم في فضله او في معاخره — ركن الممالك صدر الدولة الخالي
يقل للعلم عنـد العارفين به — ماتقدر النفس من حب واجلال

* * *

بالعلم (تملك) الدنيا ونصرتها — ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس . حلي النسـاء الذهب وحلي الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأي ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا من وحي الشاعرية والهام البصـيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فاكثر فليتلق الوحي اناس حجبـوا عن صفاء الشـاعرية وليسعيدوا :

المحسنون هم اللبـــا ب وسائر النـاس النفاية
ان القضـــاء اذا رمى دك القواعـــد من ثبير
والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا
الجـد غاية كل لاه لاعب عنـد المنيـة يجزع المفراح

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى

الموت لا يخفى عليه سـبيل

فلم ار غير حـكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى فى حيـاة وابقى بعـد صـاحبه وثابا
ومن يعدل بحب الله شـيئا كحب المال ضل هوى وخابا
وما الرزق مجتنب حـرفة اذ الحظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرىء لأبيـه تابع تال
ومن العقول جداول وجلامد ومن النفـوس حرائر واماء
أرم النصيحة غير هائب وقعهـا

ليس الشجاع الراى مثل جبـانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى أثر واحدة فيفهمه متشدا انه : « ان آل لك حد الراكب مثل الماشى اول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى مثل الفقير اول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى راى شوقى أن يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان اول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية !!

وهل علم احد ان المســافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والايابا

ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :

اليس الحق ان العيش فان وان الحي غايته الممات

اليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه أن :

الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

* * *

ومن امثلة حكمته المفشوشة المحتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها – اى انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى اتلفها ولم تتفتت هي حتى تفتتت . مهابة واجلالا !! . وانه لما اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا عضوا عضوا . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء . . تصفيق متواصل . . لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فياهذا . ان جثة شكسبير ليست بموضع المظمة منه لانها في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهى في الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاز أن يعظم أحد بان يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق بأبطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على اقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبي يقول في ابي شجاع .

من لا تشــابهه الاحياء في شيم
أمسى تشــابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بانه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى انه لا معنى لان يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بانه لا يؤكل الا هو واشلاء لان الشأن كذلك في كل ماكول فالفار أيضا لا يؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل الا وهي اشلاء بل حتى الارز لا يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميـع الاكلين . وصاحبنا يرثي شـاعرا فيخلط هذا الخلط فماذا الله أي نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟؟

على ان لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحـكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول !

احذر التخمة ان كنت فهم — ان عزرائيــل في حلق نهم
واتق البرد فـكم خلق قتل — من توقاه اتقى نصف العلل
اتخذ سكناك في طلق الجواء — بين شمس ونبـات وهواء
خيمة في البيد خير من قصور — تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعراً فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟!

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا ابياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كما هي ونختارها من معان ورد مثلها فى شعر المتنبى الذى يقتفى شوقى اثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع فى الانـ
ـفس ان الحمام مر المذاق

من اطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته
وهل تروق دفينا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل فى طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن ان تقع لشوقى من ذخيرة الاحاديث الشائعة فتسمعها منه كمادته فى نقل هذه الاحاديث منظومة فاذا هى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هي بغيتنا من نجوى الالهام وهي التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بان فى البيت حقيقة اقرب الينا وحجة الصق بنا وثمرة اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بانها « الف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير !! اليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كياتها الا عادة تألفها زمنا ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لانها صوغ متاع مشاع على حين انهم لا يمسون الحكمة العالية مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لانهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض اقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان أرقى ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فاما الاولى فبنت المران والمكابدة تقرا آلافا من امثالها فى كتب اللياقة ونصائح « اياك وحذار عليك » واما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والأديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من الوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك في غلبة الصناعة عليه كالحريري على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقي بيت سوقي فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق انه له او كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت فان همُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا في اثرها قدما

ثم كرر ايضا في قوله

وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الأخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد اخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي اليه من يخبرك بأن الاخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق التمرينات الاولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشي ولها ذنب
لا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النـــاقة لا منقـــار لهـــا والـــوزة ليس لهـــا قتب

وكثيرا فى قصيدته من حكمة كهذه كان اقصى مناه ان يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هـذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت ان يستاثر بدولة الحكم والامثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها اصفارا لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدودا فى الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصـدق والسخاء وحسن المعـاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطبـاع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم احيانا من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بانه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة فاى المعنيين يقصد شوقى ؟؟ ان من الامم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحيـاة فيها واحتوائهـا على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العـاجل او البوار » والتاريخ غاص بسير هذه الامم . وان منها لمـا تحمد سجاياه ثم لا تلغيه من القـوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقـد اضحكنا مرة احـد الثرثرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس النـاس وان فى ذيوع بيت شـوقى لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : اشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى »

لا تقل اصلى وفصلى ابدا انما اصل الفتى ماقد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا امة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئـا للانسـانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من ابنائها »

رثاء الأميرة فاطمة

اقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبي المختار . اقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . اقسم بالمشهد الحسيني والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلي . اقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالامس الا نيرة ..

بهذا القسم ، أو على الاصح ، بهذه الاقسام استهل شوقي رثاءه للاميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منثور قوله :

حلفت بالمستترة   والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في ال   حظائر المنورة
مراقد السلالة الط   يبة المطهرة
ما انزلوا الى الثرى   بالامس الا نيرة

ولولا أن الامر اظهر من أن يحتاج الى قسم لاقسمت له بحق قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء لا ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد ارانا شوقي في مراثيه اجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن المبك بالمدح — افرأيت احدا قط يقسم لك على صدقه في تمداد مناقب مرثيه كانه يخشى التكذيب او يتقي ان يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقي ؟؟ واذا اطرد هذا في جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على انه مذهب جديد في بابه ونتخذ له اسما في اصول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذي لا يحمد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون في اختراع شوقي لهذا الباب واطراده في قصائده جميعا وفي ابيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم انها ليست بفلتة نظم او هفوة خاطر ولكنها اصول يرماها واسوم يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته في مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى ان يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد

وكل دمع كذب ولوعة مزورة

الا ان الامر بين لمن ينصفون ... فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتهم نفسه في رثائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ،ونرجو ان لا يبارى فيه ... فأما ان يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها . فلابد اذن من ان ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط اصوله ورسم نماذجه .

❋ ❋ ❋

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ اشبه بالتعمد ولا توقرا اقرب الى المجانة من هذائه في رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما في تابينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الاميرة اشهر من ان يرتاب فيها او يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان او البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا ونسأله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الاميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لا تغنى عنها وانه .

لا ينفع الميت سوى صالحة مدخرة

ايقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت واغنته عن الصالحه المدخرة ؟؟ فاذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟ ؟

ونحن ما كنا لنتوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد ان يلمس ضعف تمييز شوقى عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسان فاحببنا ان نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه ان يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الاول وهو .

فاطلم من يولد يمت المهد جسر المقبرة

اعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه ابا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا الى غيرها فانما الدنيا لهم معبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : اول وثان،وفقد المرء ان يعبر الجسر

وهو اوضح واوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنية واعلم انما الشيب للمنية جسر

فالذى صنعه شوقى هو انه سرقه وشوهه كعادته لانه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم اطفالا !!

والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثاني او هو بيت القصيد في رايهم قوله :

يلفظهـــــا حنظـــلة كانت بفيـــه سـسكرة

يعني الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمتدح كل بيت في القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب في تضاد الأذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقي على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لأنه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانســان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظهـــــا ســـكرة كانت بفيـــه حنظـــلة

لكان هذا الصواب في تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كانها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنــه فيرى العالم معكوســا ...

ومن ترهات شوقي التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصـــيدة :

وكل نفـس في غـــد ميتـــة فمنشــرة

فالنفوس لا تموت في غد فحسب ولقــد ماتت نفوس لا تحصى امس واول من امس وقبل ذلك بآلاف السنين وهي تموت اليــوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت منشرة غدا ـ فخانه الاداء وخذلته العبارة وهي لو استقامت له لما جاء بطائل .

واما سائر ابيــات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقـــادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب في الهواء ولا نطرح في البوتقة الحصــاء ، والشعر اذا تساوى فيه النقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ماهــذا يا أبا عمــرو؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه راسه مراكب يتريث دونها الحصفاء احيــانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وابلغه كل اربه اوجله اذ يدعى الدعاوى العريضــة على الامة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينق الحافه عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد ان الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الراى وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم انه مضيعه لفدام بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الراس بمصطفى الرافعى فحق علينا ان نفهمه خطر مركبه وان قدميه اسلس مقادا من راسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

اصدرنا الجزء الاول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شــوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجمــاع ما ينظر اليه الرافعى لانه لا يبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من منــدله مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستخف عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامي كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حرئ أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقي ان النشيد القومي يجب « ان لا يكون وعظا بل حماسة ونخوة وان يكون موضوعا على لسان الشعب » .

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

الى العلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الأولى :

الى العلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض من يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقي لقوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا الخ .. الخ .

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقي للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟! » وكما أخذنا عليه « أنه لصتوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

وانكرنا من نشيد شوقي أنه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به في جميع

المصور ان يتهيا مكاننا وان لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك وتهم بتشييد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيضاء فقال : « واذا قيل اليوم لبنى مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد الف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله فى تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس : « الم تك تاج او لكم مليا ؟ » بان الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها » .

فعلمت البيضاء ايضا « ان زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فلله ما أعلم البيضاوات بالتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وانه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا ان بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول مهدهم عزا و « فخرا » الخ الخ .

لأن التنوين لابد ان يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ورجهه فأى رائحة تفوح منها ! » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين انهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انهـا مما لا يذوقه احـد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هـذا السخف فلندعه .

اتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟!

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حـدثانه اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالى نمانا اوائل علمـوا الامم الرقيـا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقى عن ان يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فاساله بالله ثم اساله كيف غفل ايها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض اعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنـوا
فليس وراءها للعـــــز ركن
اليس لكم بوادى النيل عدن
... الخ الخ

قال : « ان البيت الثانى منبتر وسال : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ! « كلام مقطوع عما قبله » . وسال من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينـا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا أن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه ــ او لم يضعهما ــ واصر وولى واستكبر استكبارا وكانه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها أن احدا تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افنـدى عـوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر ...

فهـذا الخلق البغيض ونظائره من جرثومته هى التى تملأ نفوسنا تقزازا وعزوفا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده ــ ارجحهم منها سـهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشمارهم جميعا نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها باس من السماجة والافتراء ؛ وانما الباس كل الباس عليه من المروءة والحياء .

ولقد الصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة لجنة الاغاني فقيدناها لهم وابينا لانفسنا أن ندخلها في كلامنا مع انها اهون وجوه النقد التي اخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لاصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي أن يسم نفسه على غلاف رسالته «بنابغه كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الي نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالاصنام(١) ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك ان يوحي بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كاننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته في اقاصي الصين او أطراف السويد ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة !

ولما اراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن انه فاتنا ابلغ في الفند والسخف فنعى على نشيد شوقي خلوه

---

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد اكبرهم ان يقرر اصنام الطبقة التي هم دونها ليكونوا بذلك اصناما للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزغت شياطينه وانفرجت رذائله فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الاعمه أمة تتفنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الادب . افثيتم نفوسنا اغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم ايها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة اضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسبها الادب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون الا ان يعدوا شكرى من دعاة الجديد والا ان يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهــــل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

اما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رءوسا وكأنما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا ان لا نشيم الخير من احد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياويحنا لقد اسخطنا والله هذه المعدات الضافية وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى « وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته » كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب فانا لا ننكر أن شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجيء دفاعهم اقتل له من نقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شيء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نغفل الى جانب التشجيع ان ننبهه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه « انه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهذيب او تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بانه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان راى اليوم لا يتفق مع راى الأمس ان صح ان هناك رايين ؟ كلا لقد ادينا الواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير » وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على أن كوني مجنونا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شيء جل او دق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . الم يقل فى كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غـرو اذا رايت فى الضيـاء ظلاما ورايت فى سواده ما يخلقـه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى اذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى اذنه اليسرى ومن العجيب ان هـذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من اجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت اعماقه ولا اعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الفكر والأمانى) اهـ .

فهل رأيت أيها القارىء أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شيء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس واوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هـذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حـركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز فى شيء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعـلان دهشـته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انغاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديعـة لا تسمع عنهـا فى كتب

الهندسة ويرى ازهارا خيالية لا يعرفها الباحثون فى علم النبات »
فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفى هذا تأييد لقوله فى
وصف جنونه « ولا اعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه » .

وشكرى قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس
العجائز من النساء اسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث
اكون . واذكر انى رأيت مرة عفريتا على سطح منزلنا وكان اسود
الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر
الكثيف » .

وليس ذلك فى صغره فقط بل هو الآن بعد ان كبر وبلغ أشده
كما كان فى حداثته .

انظر قوله فى ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفى بعض الاحايين اخاف خوفا شديدا أن يظهر لى ابليس .
فاتلفت كى اثق انه لم يظهر بعد وفى بعض الاحايين أعتقد وجود
العفاريت والجن كما كنت اعتقد فى ايام صغرى لقد سمعت البارحة
القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الارواح الحائرة
المعذبة (التى تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم اشك فى انها عفاريت من الجن واصابتنى رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الارواح الحائرة التى يذكرها وكيف انه لا يجد تمثيلا لمواء القطط ـ لا عوائها ـ الا بعواء المفاريت وكذلك كل صوت فى سمعه قال فى ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال فى ص ٣٤ « اذكر انى رايت مرة حريقا هائلا فى جنح من الليل فهيج فى قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت اشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن الغريب انى يخيل لى ان هـذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على ان يفهم الحياة ومعرفة سرها » .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا فى اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رايت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. او احدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لأسيء ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رايت أحدا ينظر فى ثيابى الا حسبته راى فيها شيئا خفى عنى وما رايت احدا ينظر فى وجهى الا حسبته راى فيه شيئا قذرا وما رايت احدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا او حقدا وما رايت احدا باسما الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم أعرف سببه الا خجلت خجلا شديدا وحسبتنى غرضا لذلك الضحك (ومن اجل ذلك صرت اعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفته

سبب ابتسامه واحيانا اعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والمغاريات كل ما يملأ ذهن شكري فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال في ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رايت في الحلم البارحة اني اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندي ما ادفع به التهمة فصرت اصيح امام القاضي واقول انا بريء والقاضي يهز راسه ولا يصدقني والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم رايت بعد ذلك اني اساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع .. اني لاذكر اني اتهمت (زورا وبهتانا) في ايام صغري بسرقة علبة من الحلوى ولا ازال اذكر ما نالني من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم (كذا) باطلة .. على انه من (جنون) الياس والفزع والجبن توقع ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي ان تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه التهم مزورة كاذبة حتى التي حلم بها فان لهذا الخوف منه ان يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال في ص ٨٥ : « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما ابرياء وهذا نظر فاسد فان في نفس القديس جرثومة الاجرام .. اي الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك في نفسه من حشرات الشر .. لقد مرت بي ساعات كنت احس فيها تلك اللذة التي تدفع المرء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يليح له سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروى ظمأه وينقع غلته انا اليوم بريء ولكن ما يدريني ربما كنت في غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التي في

نفسي .. وكنت اشفق على المجرمين واملأ لهم قلبي رحمة فانه لا يحزنني في الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التي يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت في الحلم مرة اني اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمي وكنت أحس جريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم في عروقي واسودت الدنيا في عيني وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت أحس صوتا كانه صوت اعصابي تتقطع فيحكي صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيل لي كان يدا من جليد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التي تمكن الاديب ان يعدم شخصه في اشخاص غيره وأن يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس » .

وقال في ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فاخذت سكينا وادنيتها من صدري ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي أن أضرب نفسي الضربة القاضية فلم تهن على نفسي فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجات الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر في طرق الانتحار واختار منها واحدة » .

وقد فكر في الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خبره قال في ص ٩٦ :

« اني لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذي لطمني فيه شقيقي لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا في اذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض مايصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وان تنجو سليما فوقعت يدي الى جانبي واحسست أن روحي قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسست كأن عظامي قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة فجعلت اعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بلحاظ المقت والكره لانى كنت احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روحى التى اهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت ان ارمى نفسى فيه ولكنى هزات بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (أن اتابط سكينا او مسدسا وان انتقم من ذلك الشقى فاقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سميراى ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت اقرض اسنانى من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) اهـ

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات .
قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بداله به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت ان افقا عينه او ان اصيب احد اعضائه بتلف دائم او ان تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما سددت يدى لالطمه ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى انه لم يخش ما خشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بانفمهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كانها قوس قزح » .

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكاننا اخترعنا شيئا وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى اين وقع من الحقيقة اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما ادراهم انه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات :

« انى فى خلوتى بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجحة والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن اقول لهم كذا كذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن اى مزية فى ان يكون المرء (عييا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر أو المحزون أو قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جراة اترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى أن اكون مثلهم . اذكر أن ابى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » فى شعره بعد اقراره به وتقريره انه جرع كاسه المرة وانه وصل الى اعماقه وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لا كاولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون انهم مجانين

وفى الناس كأبون حتى على انفسهم ولكنا عاشرنا شكرى اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ فى شىء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن اشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن ان يقال فى الرد علينا وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آخر اسمه م . ن وان شكرى ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شىء الا ضمير المتكلم وقد نشر شكرى اكثرها فى « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها فى كتاب طبعه فى ١٩١٦ ويرى قارىء الاعترافات ابيات شعر كثيرة واردة فى اثنائها وفى الهامش انها من شعر المؤلف وصاحب الابيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق ان يبعث القارىء على الركون الى هذه الاعترافات وتصديقها.انه يجد مصداقها فى شعره فكما انه قال فى الاعترافات فى نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال فى شعره « فقد اغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيهـا الخير والشر
دواع طويـلة الاغفـاء

وقال معترفا انا اليوم برىء ولكنى ربما كنت فى غد مجرما ومن شعره

ربمـا شب بـين جنبيك للشر
ضرام ما ان له من فنـاء
انت فى اليوم واسع الجاه غض ال
خير لـدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دمـاء قتيـل
ابيض الطبـع لم يشب برياء

ربمـــا كنت فى غــد اشعث الطب
ع لئيم الخصـــــال جم الشقاء

خاضب الـكف من دماء عــدو ـ
طـــائر الضغن ثائر الشحنـاء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واوردنا بدءا من اعترافاته وفى شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهى قصة امراة ارادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد افرغت لى السم فى كوبى
وقامت تمـر غــير بعيــد

ثم غافلتهـا وافــرغت كــوبى
فــوق ماء بكوبهــا منزور

ثم نلنـــا من الطعـــام بلاغا
وشربنــا بـرءا من التصريـد

ثم جاء اليوم الجديد فنــامت
زوجى الرود نـومة المقبــور

فصل السـم فعله فى حشــاها
ودهاها من الـردى بقيــود

ومنها قصيدة عنوانها « ام اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيهـا يبرر هذه الجنـاية لأنه فر من الحرب قال وقد نسى انه هو ايضا جبان حتى فى مواطن « اللطام »

ايهـــا الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حـادث مقـــدور

ان اما تعزى لهـــا قتلت فى
قتلك العـــار لم يصبهـا معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »

قـــد قبلتني قبـــلة مرة
كانها من حمـــة العقـــرب
تنهش جـــاها لم يكن نهـزة
لشـــاحذ الانيـــاب والمخلب
لولا وميض الزاى يكتـــادني
يعيـــلني من سفه المغضب (!!)

جللتهـــا بالسيف امحو بـه ال
ذنب بـــلذب رائـــع معجب

وتامل فى هذه الابيات همس « الجبن واخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بانها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم

اطيلـوا حيـــاة الجارمين فانهـــا
حيـاة اذا ســـــد المطامع عاقر

لقـد اخلفتهم بلغـة العيش برها
زمانا وحابات الحيـــاة غـوادر

فبئس حيـــاة المرء والفقر عاكف
عليه واسـباب الحيـــاة جرائر

هنـــا لك انى للفقير لعـــاذل
وانى لـه ممـا يعانيــــه عاذر

كان كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك ابيات كثيرة فى تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين النـــاس ربا معززا
ونادوك انى فاتك النفس جـــارم

لالقيت غفرانا لديك ورحمة
فما يغفر الزلات الا الاعاظم

وقوله :

رحت اسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح

او كذى الجرم حين طال به السجن
يضسل الطريق عند السراح

وقوله :

كان همــوم المــرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفى واعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك فى

شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمة
ولكن نوم الجــارمين عقــاب

يسل على الحلم اســياف نقمة
فاحــلام نومى كالجحيم عـذاب

كم هـد من عـزم صليب عذابها
وشيب وراد الذنوب فشــابوا

ومنها :

وغيرنى عمـا عهـدت جـرائرى
فليس الى الحال القــديم اياب

فلا تحســبن الشر يمحى بتوبة
وان غفر الجـرم العظيم متـاب

يوافع كل النـاس بالفـكر شرهم
وقــد عابنى انى جـرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفســه
وذاك حــديث ما عليــه عقـــاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضـــياء وكذلك فعل فى هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا
لـكن ورد الجـــارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم ير فيه مأثما

وان بقلبى من جفـــائك (جنة)
فان رام يوما قتلـــكم ما تأثمـــا

فاسقى جنـــونى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبـــا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك فى أن الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هى صقالة وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شـــاذ غير مألوف فى الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

فهرس

الجزء الأول

الجزء الثانى

رقم الإيداع بدار الكتب

١٤١٣٢/١٩٩٦

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مطابع مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٢٥٥١٨١٠١ - ٢٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠